كوكتيل 2000

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

د. نبيل فاروق

43

ذلك اليوم

وقصص أخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

عقول المستقبل

(دراسة)

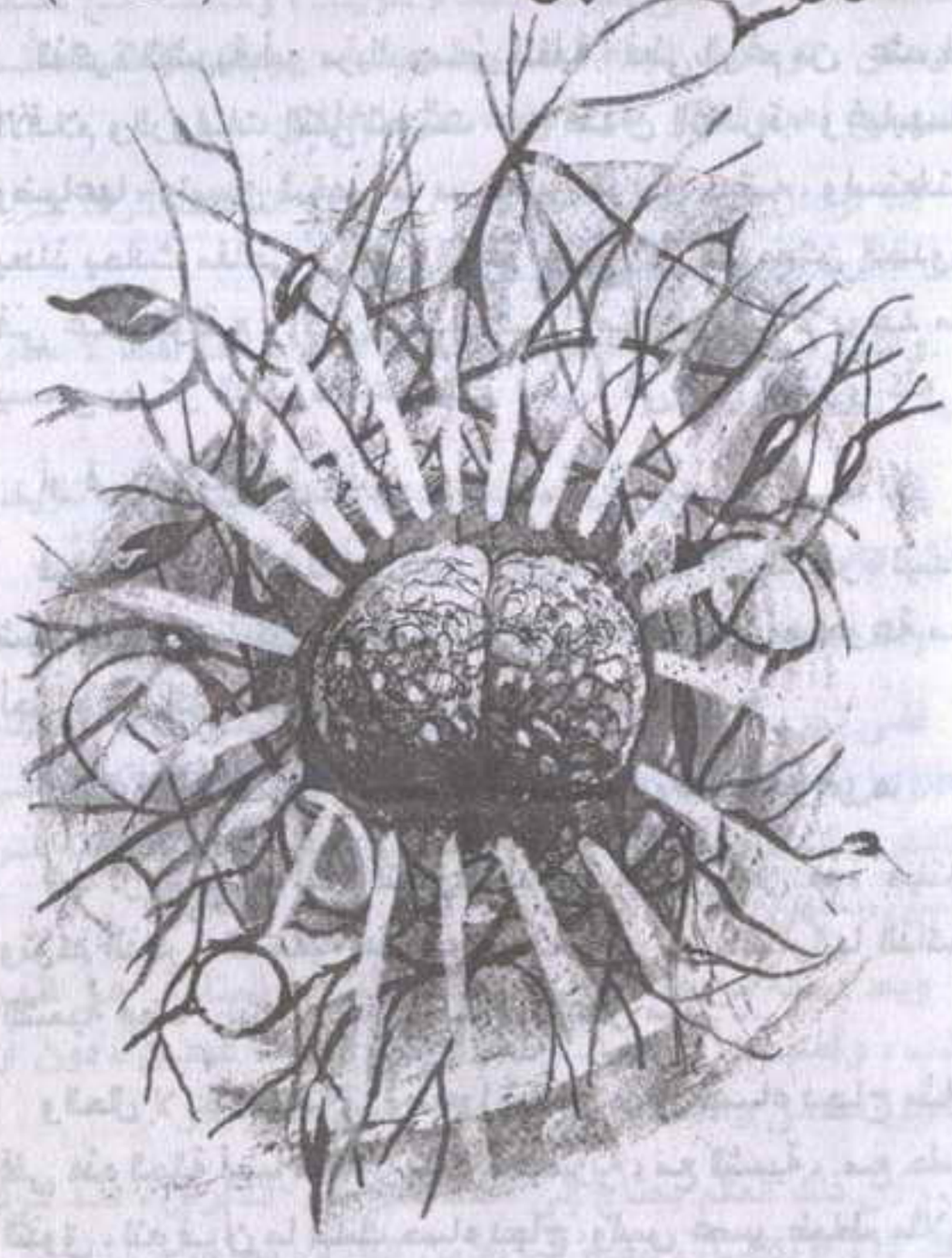

- مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب .
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000 ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم ..

د. نبيل فاروق

عقول المستقبل

(دراسة)

الذاكرة البشرية أمر مربك ومحيِّر للغاية ؛ فعلى الرغم من عشرات الأفلام والروايات التى تحدثت عن فقدان الذاكرة ، وغيابها ، وضياعها ، ونسيان شخص ما مرحلة من مراحل حياته ، واستعادتها بعدئذ بحادث مفاجئ ، وعلى الرغم من أن كل هذا ممكن الحدوث فى عالم الواقع ، إلا أن المثير فى الأمر هو أنه لا يوجد ما يسمى بمركز الذاكرة ، على نحو فعلى ، فى المخ البشرى كله ..

أو فى أى مخ حى آخر ..

فبعد أبحاث ودراسات طويلة ، أدرك العلماء أن الذاكرة ليست شيئًا ينبع من مركز بعينه ، وإنما هى خلاصة تآزر مجموعة من أجزاء ومراكز المخ فى آن واحد ..

فهناك ذاكرة بصرية ، وسمعية ، ولمسية ، وشمية ، وغيرها ..

أنت ترى صديقًا لك ، فتخبرك الذاكرة البصرية أن هذه هيئته ، وتؤكد الذاكرة السمعية هذا مع صوته ، وربما تشاركها الذاكرة الشمية أيضًا ، لو أنه اعتاد استخدام عطر مميَّز ..

والحال لا يختلف إذا ما وضعوا أمامك طبق حساء دجاج مثلاً ، ففى هذه الحالة أيضًا ستتآزر الذاكرة البصرية ، مع الشمية ، مع حاسة التذوق ، لتعرف أن ما أمامك حساء دجاج ، وليس عصير طماطم مثلاً ..

هذا ما يحدث فى كل أمر من أمور الحياة ، وفى كل لمحة من لمحات الذاكرة ، التى حيَّرت العلماء طويلاً ، وخاصة مع كشف مدهش ، توصَّلت إليه العلوم الحديثة ، ويعتقد العلماء أنه سيصبح أهم وأخطر علوم الغد ، على الإطلاق ..

فما توصل إليه العلماء مؤخرًا ، هو أن أمخاخنا ترث جزءًا من ذاكرة الأجداد ، على نحو أو آخر ..

والعبارة ، على الرغم من بساطتها ، تفتح أمامنا آفاقًا لا حدود لها ، للعلم والمعرفة ..

إنها تعنى ، باختصار ، أن أمخاخنا تحوى مكتبة هائلة ، فيها تاريخنا كله ، وفيها كل المعارف ، التى تلقاها الأجداد ، ولم تذهب هباءً ..

ولقد كانت البداية ـ كالمعتاد ـ مع فئران التجارب ..

ففى تجربة ما ، لا تهمنا تفاصيلها الآن ، كان أحد العلماء يطلق زوجًا من الفئران عبر متاهة معقدة ؛ ليدرس قدرتها على التذكر والتعلم ، وكجائزة ، كان يضع فى نهاية المتاهة قطعة من الجبن الشهى .. للفئران طبعًا ..

وبعد دستة من المحاولات ، حفظت الفئران المتاهة عن ظهر قلب ، وأصبحت تعبرها ، وصولاً إلى قطعة الجبن ، دون أن تخطئ منحنى واحدًا ، أو تتردَّد حتى عند منحنى آخر ..

ولأن ذلك العالم يحتاج إلى أعداد أكبر من الفئران ، فقد ترك ذلك الزوج يتناسل ، لينتج المزيد من الفئران الصغيرة ..

وذات يوم ، خطر ببال العالم أن يختبر قدرة الفئران الوليدة على التعلم والتذكر ، فأطلق بعضها داخل المتاهة نفسها ، ووضع قطعة الجبن فى نهايتها ..

وكانت المفاجأة ..

الفئران الوليدة ، التى لم تختبر المتاهة بنفسها قط ، قطعت طريقها عبرها ، دون خطأ واحد ، حتى بلغت قطعة الجبن ، وكأنها تعرف مسارها مسبقًا ، أو كأنها ورثت ذاكرة أبويها ، على نحو أو آخر ..

وانبهر العالم ، وسجّل ملاحظاته ، وكرّر التجربة مرة .. وثانية ، وثالثة ، وحصل على النتائج نفسها ..

بل ، لقد استخدم فئران وليدة أخرى ، للزوج نفسه ، فعرفت طريقها إلى قطعة الجبن بكل بساطة ، وعندما أجرى التجربة على فئران أخرى ، تم توليدها من زوج آخر ، بدت حائرة داخل المتاهة ، ولم تنجح فى بلوغ قطعة الجبن ، إلا بعد ست محاولات على الأقل ..

وكان هذا فتحًا فى دراسات وأبحاث الذاكرة ، مما دفع ذلك العالم إلى تغيير مسار أبحاثه ، وتوليد أجيال جديدة من زوج الفئران نفسه ، واختباره عبر المتاهة نفسها ..

وفى كل مرة ، كانت النتائج مبهرة ..

فعلى نحو ما ، تنتقل ذاكرة الأبوين إلى الصغار فور ولادتهم ، بحيث يتذكرون كل ما تعلمه الأولون ..

على الأقل لفترة ما من الزمن ..

ففى واحدة من تجاربه ، اختار العالم فأرين وليدين ، من جيل حوى ستة فئران ، وأطلقهما فى المتاهة ، فبلغا قطعة الجبن دون تردُّد ، واحتفظ بالفئران الأربعة الأخرى لشهر كامل ، دون أن يختبرها ، ثم أطلقها عبر المتاهة ، فى بداية الشهر الثانى ، فبلغ واحد منها فقط قطعة الجبن من المحاولة الأولى ، واحتاجت الثلاث الأخرى إلى ثلاث محاولات حتى تبلغها ..

وفى الجيل الثالث ، لم يطلق نصف الفئران ، إلا بعد مرور شهرين كاملين ، فلم يبلغ أحدها قطعة الجبن ، إلا بعد أربع محاولات !

جعل هذا العالم يدرك ، ويسجّل فى ملاحظاته أن الفئران تولد حاملة ذاكرة الأبوين ، ثم لا تلبث تلك الذاكرة الموروثة أن تنزاح جانبًا ، وتختبئ فى ركن مظلم من المخ ، لتفسح الطريق أمام الذاكرة المكتسبة ، مع مرور الوقت ، وتزايد الخبرات ..

الوسيلة الوحيدة إذن ، للحفاظ على الذاكرة الموروثة ، هى تنميتها منذ الأيام أو الأسابيع الأولى للولادة ..

كرّر العالم التجربة عشرات المرات ، وتيقن من نتائجها ، ثم وضع فى نهاية كراس تجاربه تساولاً هامًا ..

تُرى هل يسرى هذا الأمر على البشر أيضًا ؟!

وكان الجواب يحتاج إلى تجارب أخرى ..

ومختلفة ..

* * *

الهندوس والبوذيون ، وبعض أصحاب المعتقدات الشرقية الأخرى ، يؤمنون تمامًا بما أطلقوا عليه اسم (تناسخ الأرواح) .. وتناسخ الأرواح هذا هو ، من وجهة نظرهم ، أن أرواح الموتى لاترحل تمامًا ، وإنما تعود إلى الحياة فى أجساد أخرى ، تبدأ معها رحلة جديدة ، تحاول من خلالها التكفير عن كل الأخطاء القديمة والدائمة ..

وأصحاب تلك المعتقدات لا يؤمنون بها لمجرد توارثها وترديدها فحسب ، ولكن لأنهم واجهوا بعض الظواهر العجيبة ، مع ثقافة علمية محدودة ، وإيمان تلقائى بالمشعوذات ، لدى كل جاهل ، ليصنع ذلك المزيج فى النهاية مصطلحًا ..

وقصة ..

وفى العقيدة الهندوسية ، لا تحل روح المتوفى بالضرورة فى جسد بشرى ، ولكن هذا يتوقف على رصيد أعماله ، فى حياته السابقة ، فقد تحل روحه فى جسد فراشه ، أو حمامة ، أو قط ، أو حتى صرصور غيط ..

وإذا ما تساوت سيئاته ومحاسنه ، عاد على هيئة إنسان آخر ، ذكر كان أم أنثى ، بغض النظر عن جنسه ، فى الحياة الأولى ، أو الثانية ..

كلهم وضعوا هذا المعتقد ، وآمنوا به ؛ لأنهم واجهوا حالات ، تبدى فيها بعض الحيوانات ذكاءً مدهشًا ، يفوق بنى جنسها بكثير ، أو تتعلق بأشخاص بعينهم ، أو تبغضهم ..

وهذا يحدث مع الطيور ..

والحشرات ..

والزواحف ..

وحتى البشر ..

راجع نفسك ؛ فستجد أنك أحيانًا تضيق بشخص ما ، أو مكان ما ، دون أن يمكنك تحديد سبب واضح محدود لهذا الضيق ..

أو العكس تمامًا ..

وبغض النظر عما يؤمن به أصحاب المعتقدات الشرقية ، وعما يؤكدونه ويطرحونه ، من أسباب ومبررات وتفاسير ، فالعلم يخالفهم فى كل ما يتصوروه ، ويطرح صورة مختلفة تمامًا ، عن الظواهر نفسها ..

صورة لا تقل غرابة !

فالعلم يقول : إن الذاكرة التى نحملها فى رءوسنا وأمخاخنا ، والتى نحيا ونتعايش بها ومعها ، ليست خاصة بنا وحدنا ..

إنها ذاكرة جماعية ..

ذاكرة توارثناها جيل بعد جيل ، وعصر بعد عصر ، وخلية بعد خلية ..

لذا ، فذاكرتنا هى ملخص مجموع ذاكرة كل الأجداد والأعمام ، والأقارب ، الذين تسلسلوا من نسل واحد ..

كل جيل ينقل ذكرياته إلى الجيل التالى ..

فالتالى ..

فالتالى ..

وفى كل مرة ، تضاف الذاكرة المكتسبة إلى الذاكرة الموروثة ، فيتم توريث ذاكرة أكبر ..

وبعد خمسة أو ستة أجيال ، سنجد لدينا ذاكرة هائلة ..

عملاقة ..

جبارة ..

ذاكرة تحوى أضعاف أضعاف ما كانت تحويه ذاكرة الأجداد ..

وبهذا ، فكل جيل يولد ، يتوافق مع الزمن ، الذى ولد فيه ، فيأتى أكثر ذكاءً وبراعة ، وحنكة ..

وتكون معلوماته أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ولقد أثبت العلم نظرية توارث الذاكرة ، ووضع أسسها وقواعدها منذ بضعة أعوام ..

ولم يكتف بهذا ..

فمزية العلم ومشكلته فى الوقت ذاته ، هى أنه لا يشبع ولا يكتفى أبدًا ..

إنه دومًا يطمح إلى المزيد ..

والمزيد ..

والمزيد ..

لذا فقد غرقت عدة فرق من العلماء فى دراسة الذاكرة ..

وأسرارها ..

وخفاياها ..

وغوامضها ..

وقوتها ..

ثم فجأة ، وبمصادفة بحتة ، توصّل فريق منها إلى حقيقة مدهشة ، تتعلق بالذاكرة البشرية ..

توصّل إلى ما يعرف باسم الذاكرة البشرية التراكمية ..

المشتركة ..

نعم .. ذاكرة تراكمية مشتركة ..

ولكى تفهم هذا المصطلح ، لابد وأن تعود إلى كيفية عمل شبكات المعلومات والإنترنت ..

ولهذا حديث آخر ..

قريب .

* * *

الإنترنت شبكة معلومات هائلة ، تمتدّ من أقصى الأرض إلى أقصاها ، فى كل الاتجاهات ..

كل شخص ، وكل جهة ، وكل شركة ، وكل مؤسسة ، تضيف ما لديها من معلومات إلى تلك الشبكة ، فتتاح المعلومات إلى كل مستخدمى الشبكة ..

مجموعة إذن من المعلومات الفردية ، والعقول المنفردة ، صنعت ، عن طريق ربط بعضها ببعض ، شبكة معلومات لا حدود لها ..

وعصرنا هذا عصر الشبكات ..

التليفونات أصبحت شبكة هائلة ، تربطها الأقمار الصناعية ببعضها البعض ، حتى يمكن لشخص فى أقصى القطب الشمالى ، أن يتحدّث مع صديقه فى القطب الجنوبى ، عبر تلك الشبكة ..

الإعلام صار شبكة متصلة ، عبر مجموعة من الأقمار الصناعية أيضًا ، تربط ما يشاهده المواطن فى (روسيا) ، بما ينعم به الشخص العادى فى (أمريكا) ..

ولكن ما أثبته العلم مؤخرًا ، هو أن عقولنا أيضًا ، شىءنا أم أبينا ، تصنع فيما بينها شبكة ..

شبكة عقلية ، مخية ، معلوماتية بلا حدود ..

فكل منا ، لديه قدرة كافية ، على قراءة عقول الآخرين ، واكتساب الخبرات منهم ، والاستعانة بتجاربهم ، وتبادل التحذيرات والمعلومات معهم ..

ولا تجعل هذا يدهشك ، ولا تسارع باستنكاره أيضًا ، بحجة أنه أمر غير موجود ، فهناك العديد من السمات ، التى قضت عليها الحضارة ، وأخمدها التطوّر ، فى العقول والأمخاخ البشرية ..

الإنسان القديم مثلاً ، كانت لديه القدرة على تحريك صماخ الأذن ، لتوجيهه نحو مصادر الأصوات ، وكانت هذه قدرة معتادة ، حتى لم يعد يحتاج إليها الإنسان ، الذى لم يعد يخرج للصيد ، إلا كمتعة وهواية ، فضمرت تلك السمة ، ولم تعد متاحة ، إلا لعدد قليل من البشر ..

وكل الناس قديمًا ، كانت لديها غريزة التنبؤ بالخطر ، أو ما يسمى فى الموسوعات (برى كوجنيشن) ، إلا أنها ضمرت أيضًا ، مع تطوّر وسائل الحماية ، وكمنت فى عقولنا ..

وهذا ينطبق أيضًا على شبكة المعلومات المخية ..

فقديمًا ، كان أفراد القبيلة الواحدة يشعرون ببعضهم البعض ، ويمكن لكل منهم أن يقرأ أفكار ومعلومات ومخاطر الآخرين ، بحيث يتحرّك الكل بقيادة واحدة ، دون الحاجة إلى التخاطب أو الحديث ..

المخ البشرى إذن يحوى وسيلة اتصال بأمخاخ الآخرين ، ولكن السمة ضمرت مع الحضارة ..

والأمخاخ البشرية كلها ، تصنع فيمَا بينها شبكة متصلة ، أشبه بشبكة الإنترنت والمعلومات ..

لأمخاخ لديها القدرة ..

ولكنها ضامرة ..

وبالنسبة للعلماء ، هذا يعنى أننا نولد بتلك السمة ، ولكننا نفقدها مع الزمن ، وفقًا للمبدأ الأساسى ، الذى اعتمدت عليه نظرية (داروين) ..

العضو المستعمل ينمو ، والمهمل يضمر ..

وكتطوير للقاعدة ، نقول : « إن القدرة المستخدمة تنمو ، والقدرة المهملة تضمر .. »

إذن ، فبعد عام أو عامين من الولادة ، ومع عدم تنمية قدرة الاتصال العقلى الشبكى ، يفقدها الإنسان تمامًا ..

الوسيلة الوحيدة للإبقاء عليها إذن ، هى تنميتها طوال الوقت ..

ومنذ الولادة ..

ولقد لاحظ العلماء ، أن التوائم المتماثلة ، والصغار الذين

يولدون فى مكان واحد ، يمكنهم التفاهم والتواصل ، دون أن يمتلكوا القدرة على الكلام ، ودون أن تتطوَّر لديهم لغة حوار واضحة ..

لذا ، فقد بدأ العلماء تجاربهم من هذا المنطلق ..

الصغار ..

تركوهم يتواصلون ، ويتحدَّثون بعقولهم ، ويربطون معلوماتهم ببعضهم البعض ، فى بيئة مدروسة وراقية ، حتى بلغوا الثالثة من العمر .. وجاءت النتائج مدهشة ..

الصغار بلغوا هذا العمر ، وطوَّروا فيما بينهم شبكة معلومات مخية عقلية متكاملة ، بحيث صاروا يتعاملون ويتخاطبون ، ويتبادلون المعلومات ، دون الحاجة إلى الحديث ..

وفى حجرة منفصلة ، وضع العلماء أحد الأطفال ، ووضعوا أمامه عددًا من أشكال اللعب ، كلها لطيفة وجميلة ، فيما عدا المكعب الأحمر ، الذى ما أن لمسه ، حتى سرى فى جسده تيار كهربى محدود ، جعله ينفر منه ..

وبعدها أحضروا طفلاً ثانيًا ، ووضعوا أمامه مجموعة الأشكال نفسها ..

وعلى الرغم من أن الطفل الثانى لم يلتق بالأوَّل ، الذى تم

نقله بعد التجربة إلى حجرة خاصة ، إلا أنه استمتع باللعب بكل الأشكال ، وتجاهل المكعب الأحمر تمامًا ، بل وأبدى خوفه منه ، عندما حاول من معه دفعه نحوه ..

وتكرَّر هذا مع الطفل الثالث ..

والرابع ..

والخامس ..

وفى التجربة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ..

وبعد عشر تجارب مختلفة ، توصَّل العلماء إلى حقيقة علمية بالغة الأهمية ..

لقد نقل الطفل الأوّل خبراته كلها ، إلى عقول الأطفال الآخرين ، دون حتى أن يلتقى بهم ..

نقلها عبر شبكةُ معلومات مخيفة عقلية غير مرئية ..

وكان يمكن أن تستمر التجارب ، وأن ينشأ لدينا جيل مدهش من المتصلين عقليًا ، لولا أن اعترضت منظمات الطفولة على إجراء التجارب على الأطفال ، وتدخَّلت فى قوة ، لإيقاف كل هذا ، ولمنع استكمال دراسات شبكة المعلومات المخية ..

ولكن العلماء كانوا قد أثبتوا وجودها بالفعل ..

وبدءوا فى دراستها وتطويرها أيضًا ..

وكان لهذا الفضل فى تفسير عشرات الظواهر الغامضة ، التى عجز العلم عن تفسيرها لسنوات وسنوات وسنوات ..

وأهمها فكرة أو نظرية تناسخ الأرواح ، و ..

ولهذا رواية أخرى .

* * *

إجراء التجارب على البشر أمر عسير ، ومعقَّد ، ومحظور أيضًا ..

ثم إنها ، حتى فى حالة صلاحيتها ، تحتاج إلى زمن طويل للغاية ، لرصد وتحليل النتائج ..

لذا ، يجرى العلماء تجاربهم دومًا على حيوانات سريعة التناسل ، مثل الأرانب أو الفئران ، أو خنازير غانا ؛ حتى يمكنهم دراسة النتائج والآثار ، عبر أجيال وأجيال ..

وفى تجارب انتقال الذاكرة بالذات ، كان هذا حقيقة ..

وعقبة ..

ففى حيوانات التجارب ، ثبت على نحو قاطع ، أن الذاكرة يمكن أن تورَّث ، بل إن سبعين فى المائة ، مما تعرفه الطيور

مثلاً ، من ذاكرة وراثية ، فالكتكوت الصغير يخرج من البيضة إلى مصدر الغذاء مباشرة ، ويعرف كل ما ينبغى عليه فعله ، دون أن يعلمه أحد ..

ثم يكتسب الثلاثين فى المائة المتبقية مع العمر والخبرة ..

والحيوانات ترث ذاكرة بنسبة تتجاوز الستين فى المائة ، ثم تكتسب الأربعين فى المائة مع الخبرة والتجارب والتعليم ..

فماذا عن الإنسان ؟!

التجارب هنا شبه مستحيلة ؛ لأنه من غير المنطقى أن ينتظر العلماء عامًا ونصف على الأقل ؛ لاختبار الذاكرة الوراثية ، لدى جنين جديد ..

وماذا عن الأجيال التالية ، والتالية ، والتالية ؟!

دراسة الأمر فى البشر إذن ، تحتاج إلى تكنيك مختلف تمامًا ، عن ذلك المتبع فى دراسته على الحيوانات فى المعمل ..

لابد من البحث عن ذلك التكنيك ..

وأصبح هذا هو الشغل الشاغل لعلماء الذاكرة ، لفترة طويلة من الزمن ، قبل أن يقترح أحدهم اتجاه ما ، ويقترح آخر اتجاه ثان ..

الأول اقترح دراسة أمخاخ الحيوانات ، ومقارنتها بأمخاخ

البشر ، ومعرفة الفارق بين المخين ، لاستنباط الأثر الوراثى فى كل منهما ..

والثانى اقترح التنويم المغناطيسى ..

الأول رأى أن تحديد الأجزاء ، التى تستقر فيها الذاكرة الوراثية فى المخ ، سيقرّر ما إذا كان لها مثيل فى أمخاخ البشر أم لا ، إلا أن طرح الفكرة فى مؤتمر علمى واجه رفضًا عنيفًا ؛ بسبب جهل العلماء لتركيب المخ ، سواء الحيوانى أو البشرى ، على نحو تام ، وتأكيد البعض أنه لا توجد مراكز محدّدة للذاكرة ، سواء أكانت موروثة أم مكتسبة ..

والثانى رأى أن تنويم شخص ما مغناطيسيًا ، وتصفح عقله فى حالته هذه ، قد يخرج معارف لم يتلقنها شخصيًا أبدًا ، مما يثبت أنه قد ورثها عبر ذاكرة الأجداد ..

وعلى الرغم مما سيسبه هذا من إحباط واستنكار ، فقد جند العلماء الاقتراح الثانى ، وبدأ بعضهم تجاربه بالفعل ، فى هذا الشأن ..

فريق من المتطوعين ، تم إخضاعه للتنويم المغناطيسى ، وطلب منه المسيطر العودة بذاكرته إلى الماضى ..

إلى أقصى نقطة فى أعمق أعماق الماضى ..

وتحت تأثير التنويم المغناطيسى ، غاص المتطوعون فى أعماق أمخاخهم ، وفى ذاكرتهم التى لم يكتسبوها فى حياتهم ..

ذاكرتهم الموروثة ..

وراحت النتائج تنهال ، على نحو يفوق كل توقُّع ..

وكل تصوُّر ..

المتطوعون عادوا بذاكرتهم إلى أيام طفولتهم الأولى ، ثم تجاوزوا هذا إلى ذكريات الرحم ، منذ تكوّن المخ ..

ثم فجأة ، تجاوزوا كل هذا ..

واختلفت كل الموازين ..

بعضهم راح يتحدَّث بلغات عجيبة ، لم يتعلَّمها فى حياته قط ، والبعض الآخر تحدَّث بلسان يخالف عمره ، وطبيعته ، بل وحتى جنسه ..

متطوِّعة بريطانية ، تحدَّثت بلسان جندى فرنسى ، من جيش (نابليون بونابرت) ، فى نفس الوقت الذى أشار فيه أمريكى كهل ، إلى أنه صبى هندى ، مات فى ريعان شبابه ..

ذكريات عجيبة ، متداخلة ، مضطربة ، انهمرت من ألسن المتطوعين فى غزارة غير مسبوقة ..

والعلماء يسجلون ..

ويدرسون ..

ويحللون ..

ويحاولون أن يفهموا كل هذا ..

الأمر تجاوز إذن حتى الذكريات الموروثة ، وبلغ مرحلة لم يتوقعها أحد ..

مرحلة الترانزستور ..

أو هكذا أطلقوا عليها ، و ...

ولهذا رواية أخرى ..

* * *

نشأت نظرية تناسخ الأرواح من أن البعض كان يستعيد فجأة ذكريات عجيبة ..

ذكريات تعود إلى ما قبل مولده ..

وربما إلى زمن آخر ..

وجنس آخر ..

وعالم آخر ..

فى البداية ، رصدت المعتقدات الهندوسية والكنفوشيوسية هذه الظاهرة ، وفسرتها بأنها نوع من تناسخ الأرواح ..

وفكرة تناسخ الأرواح هذه (دون الدخول فى مناقشات دينية) ، تعتمد على أن الروح ، عندما تفارق جسدًا ما ، لا تصعد إلى بارئها مباشرة ، بل تعود لتحل فى جسد ثان ، وكأنها تحصل على فرصة ثانية فى الحياة ..

ومن الجسد الثانى إلى جسد ثالث ..

ورابع ، وخامس ..

وهكذا ..

والفكرة قد تتعارض مع بعض منظورنا الدينى ، إلا أنها كانت مقبولة ، بالنسبة للصينيين القدامى ، والهنود ، وغيرهم ..

وفى الستينات والسبعينات ، قام بعض العلماء بتجارب خاصة ، تستخدم التنويم المغناطيسى ، لإعادة الإنسان إلى أقدم ذكرياته ..

كان الهدف ، آنذاك ، هو الوصول بذاكرة الإنسان إلى مرحلة النمو فى الرحم ، ليصف مشاعره وأحاسيسه ، فى تلك المراحل الأولى ، التى يتكوّن فيها الكائن البشرى ..

ولكن النتائج جاءت مفاجئة ، على نحو غير متوقّع ..

فالخاضعون لحالة التنويم المغناطيسى ، لم يعودوا بذاكرتهم إلى فترة الرحم ، وإنما إلى ما هو أبعد من هذا ..

لقد انتقلت عقولهم وذاكرتهم إلى أزمان قديمة ..

أزمان تفوق لحظة مولدهم بأيام ..

وسنوات ..

بل وقرون أيضًا ..

بعض الخاضعين للتجربة ، عادوا بذاكرتهم مائة عام إلى الوراء ، وتحدثوا عن حياة سابقة ، وصنعوها بمنتهى الدقة ، وتحدثوا عن تفاصيلها ، التى تأكّد العلماء منها تمامًا ، عند البحث عنها ..

وبعضهم غاص فى أعماق التاريخ ، وشرح تفاصيل ، كان من المستحيل معرفتها ، إلا لو عاشوها بالفعل ..

بل لقد عاد رجل إلى ماض سحيق ، فتحدّث بلسان امرأة ، وقال إنه كان أنثى ، فى حياة سابقة ، وأنه تم إعدامه بالفعل ، ضمن محاكم التفتيش ، بتهمة الهرطقة ..

ووجد العلماء أنفسهم أمام حالة عجيبة ، لم تسجلها أى من مراجعهم العلمية ..

حالة وصفوها بأنها تناسخ ذكريات ..

وفى مرحلة تالية ، جاء من يربط هذا بتناسخ الأرواح ..

وفى تلك المرحلة ، بدا الأمر محيرًا ومربكًا بالفعل ، فما رصده وسجله العلماء ، كان ينطبق بالفعل مع حالات تناسخ الأرواح ، ولكن الفكرة نفسها غير مقبولة من الناحية الدينية والعقلية ..

ومع استمرار التجارب ، وتأكيد النتائج نفسها فى كل مرة ، بدأ البعض يميل إلى تصديق الفكرة ، وبيحث فى الأديان عما يؤكد أو يرجح فكرة تناسخ الأرواح ..

ثم ظهرت فكرة الاتصال العقلى المخى المشترك ، لتقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لقد كشف العلماء أن عقول البشر جميعهم تشترك فى شبكة معلومات واحدة ، وأن ما يعرفه شخص ما ، قابل جدًا لأن ينتقل إلى الآخرين ، لو تم تحفيز الجزء المناسب من المخ ..

وهذا يعنى أن المعلومات كلها متاحة ، طوال الوقت ..

ولو أضفنا إلى هذا نظرية الذاكرة الموروثة ، فسنجد أن مجموع أمخاخنا يحوى تجاربنا وتاريخنا ، منذ بدء الخليقة ، وحتى أيامنا هذه ..

ولو أخضعنا شخصًا ما للتنويم المغناطيسى ، فإننا فى الواقع

نوقظ فى أعماق مخه دائرة الاتصال بأمخاخ الآخرين ، ونستفز فى الوقت ذاته كل الذكريات الموروثة ، المخزنة فى أعمق أعماق تلافيف خلايا مخه الرمادية ..

بمعنى أدق ، الخاضع للتنويم المغناطيسى يتحوّل إلى أدق وأرقى جهاز استقبال عقلى ، لا يمكنه استخراج كل المختزن فى ذاكرته الموروثة والمكتسبة فحسب ، ولكنه يستقبل مخزون الذاكرتين ، من عقول كل من هم حوله أيضًا ..

تخيّل راديو متعدّد الموجات ، يمكنه التقاط كل ما يحيط به من موجات وإشارات ، مهما بلغت ضآلتها ..

توصّل العلماء إلى هذا ، وألقوا على أنفسهم سؤالاً جديدًا ..

لو أن التنويم المغناطيسى يصنع من المخ البشرى جهاز استقبال فائق ، فماذا عن الإرسال ؟

هل يمكن دفع المخ إلى إرسال كل ما لديه ، كما يمكن دفعه لاستقبال كل ما حوله ؟

وهنا بدأت سلسلة تجارب جديدة ..

وقصة جديدة ..

* * *

التنويم المغناطيسى علم وفن ..

فن استخدمه المشعوذون والسحرة ، منذ آلاف السنين ؛ لوضع المتعاملين معهم فى حالة وسط ، بين الوعى واللاوعى ..

كانوا يدركون أيامها أن الإنسان ، فى هذه الحالة ، يتحرَّر من كل القيود ، التى يفرضها عليه عقله الواعى ، فى حالة اليقظة ، ولا يكون مخدرًا أيضًا ، كما يحدث فى ساعات النوم ..

ففى وعينا ، تنتقى أمخاخنا كل ما نتعامل معه ، فى حياتنا اليومية ، فلا تحتفظ فى الذاكرة المدرجة إلا بالأمور الهامة ، فى حين تزيح الأمور الجانبية أو الفرعية فى ركن مظلم ..

وكذلك ردود أفعالنا ، تخضع فى يقظتنا لرقابة غريزية ، من المجتمع والتربية ، والخبرات المكتسبة ، التى تدفعنا لإتيان أمر دون آخر ، أو لكتمان شعور ما ، وإظهار آخر ..

وفى ساعات النمو ، تخرج كل نوازعنا ورغباتنا الداخلية والدفينة ، من أعمق أعماق عقلنا الباطن ، وتمتزج بمشاعرنا الجسدية ، لتمنحنا أحلامًا جميلة ، أو مزعجة ..

أو حتى كوابيس ..

أما فى حالة التنويم المغناطيسى ، فالشخص يصبح فى حالة متعادلة ، بين العقل الواعى والعقل الباطن ، ويستعيد كل

التفاصيل ، من أعمق أعماق ذاكرته ، حتى ما تبدو تافهة منها ..

وفى هذه الحالة ، قد تنمو قدرات المرء ، وتتألَّق ، ويكتسب مهارات مدهشة ، دون حتى أن يدرك هذا ..

لذا ، كان السحرة يستخدمون التنويم المغناطيسى ، الذى لاندرى كيف توصَّلوا إليه منذ البداية ، لإيهام الناس برؤية ما لايرونه ، وامتناعهم بما لا يدركونه ، وسبر أغوارهم مما يخفونه ..

ثم تطوَّر الزمن ، وحلَّ العلم محل السحر ..

ولأن التنويم المغناطيسى ظاهرة ملفتة ، عكف العديد من العلماء على دراستها ، ومحاولة سبر أغوارها ، وفهمها ، وتصنيفها ، ووضع قواعد وأسس لها ..

وفكرة وضع الأسس والقواعد لا تستهدف تعقيد الأمور فحسب ، ولكن الأسس والقواعد تجعلنا قادرين على فهم اللعبة أكثر ، وتطويرها ، وتطويعها لاحتياجاتنا الأساسية ..

وفى الأربعينات والخمسينات ، أصيب العلم ، والعالم كله بهوس التنويم المغناطيسى ، وخاصة بعد التجارب النازية فى هذا الشأن ، والتى استهدفت رفع كفاءة المقاتلين ، وتلقينهم اللغات الأخرى ، ودفعهم إلى القيام بعمليات انتحارية ، غير مدركين لما يقومون به من تهوّر ..

ولقد نجحت كثيرًا فكرة تعلُّم لغة ما ، تحت تأثير التنويم المغناطيسى ؛ إذ بدا العقل متفتحًا على نحو مدهش ، وكان المنوَّم يستوعب فى ساعات ، ما يحتاج إلى أسابيع من الدراسة الشاقة ..

كما نجح التنويم المغناطيسى أيضًا فى رفع قدرات وكفاءة المقاتلين ، إلا أنه عجز تمامًا عن دفعهم إلى القيام بعمليات انتحارية !!

فلسبب ما ، كان التنويم المغناطيسى عاجزًا عن دفع أى مخلوق ، إلى إتيان عمل ، يتعارض مع إرادته تمامًا ، فى حالة الوعى ..

ففى تجربة أخرى ، دفع العلماء فتاة شابة إلى القيام بأمور مدهشة ، وهى تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، وعندما طلبوا منها خلع ملابسها ، ارتبكت ، وخرجت من حالة التنويم المغناطيسى على الفور ، ورفضت استكمال التجربة ..

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، كشف الحلفاء كيف أن النازيين كانوا يستخدمون التنويم المغناطيسى ، وبعض الوسائل الأخرى ؛ لدفع الأسرى إلى الإدلاء بما لديهم من معلومات ..

وبدأ العالم كله يدرس الفكرة أكثر وأكثر ..

البداية الفعلية كانت مع الأطباء النفسيين ، الذين استخدموا

التنويم المغناطيسى لعلاج مرضاهم ، وكشف عقدهم الدفينة ، وسبر أغوار ما فى نفوسهم ..

وفى هذا الشأن ، كانوا يستخدمون نفس الأسلوب ، الذى كان يستخدمه السحرة فى الماضى ..

تبدو له يتحرك بإيقاع منتظم ، وأمامه مصدر ضوئى ، ينعكس على سطحه اللامع ، إلى عينى الشخص المستخدم ، الذى يحدق فيه مباشرة ، حتى يدخل حالة نصف اللاوعى ..

وحتى سبعينات القرن العشرين ، أو حتى بدايات الثمانينات ، كان هذا يبدو أسلوبًا ناجحًا ونافعًا ..

وكافيًا أيضًا ..

ثم انتقل التنويم المغناطيسى إلى نطاق أوسع ، وبدأ علماء المخ البشرى يولونه الكثير من الاهتمام ؛ لذا فقد بدت لهم هذه الطريقة بدائية أكثر من اللازم ، كما أنها تستلزم أن يتمتع المسيطر بشخصية قوية ، تتيح له إخضاع المنوَّم للحالة ..

وهذا لا يصلح ، علميًا ..

لابد من وجود وسيلة شاملة ، يمكن أن يستخدمها العلماء ، أيًا كانت شخصياتهم ؛ لتحقيق حالة التنويم المغناطيسى ، فى أى شخص يتم اختياره للتجربة ..

بمعنى أدق ، يحتاج الأمر إلى تعميم وإطلاق حالة التنويم المغناطيسى ..

وهذا ما كان .

* * *

لم يكن من الممكن أبدا ، ولا حتى من المنطق ، أن يدخل العالم عصر الكمبيوتر ، دون أن يسعى العلم للاستفادة منه حتى الذروة ..

ففى كل المجالات ، أصبح الكمبيوتر هو اللبنة الأساسية ، التى يقوم عليها العمل ؛ لقدرته على حل المشكلات المعقدة ، وتوفير الوقت ، وإجراء حسابات شديدة الدقة ، فى لحظات معدودات ، يحتاج العقل البشرى إلى سنوات للقيام بها ..

ومع اقتحام الكمبيوتر لعالم التطوّر ، قفز العلم قفزات واسعة جدًا إلى الأمام ..

وفى كل المجالات ..

وما يهمنا هنا ، هو مجال أبحاث التنويم المغناطيسى ..

فبعد ما كشفه العلم ، من قدرات التنويم المغناطيسى ، بدأ البحث عن وسيلة لجعله أكثر يسرًا وسهولة ..

وعكف العلماء المبرمجين على تحويل التنويم المغناطيسى إلى عالم رقمى مرن ..

وظهر برنامج ..

وثان ..

وثالث ..

وفى كل عام ، يعمل المبرمجون على تطوير برامج التنويم المغناطيسى ، وجعلها متاحة للمعالجين النفسيين ، ورجال المخابرات ، والأمن القومى ، ومراكز الأبحاث ..

وبدأ التنويم المغناطيسى يكشف الجديد والجديد من أسراره الدفينة ..

باختصار ، نستطيع أن نقول إن التنويم المغناطيسى الناجح ، يعمل على إيقاظ كل خلايا المخ النائمة ، وتنشيط كل الأجزاء الكامنة ، ودفع كل المادة الرمادية للعمل فى آن واحد ..

والنتائج هنا مدهشة ..

شهود الجرائم والحوادث مثلاً ، يمكنهم تذكُّر أدق التفاصيل ، بل وحتى اللمحات ، التى تمر بهم ، إذا ما خضعوا للتنويم المغناطيسى ..

فى حالات عديدة ، تذكَّر أحدهم جرحًا فى جبهة القاتل ..

أو رقم سيارة ..

أو كلمة قيلت ..

كل ما خزنته الذاكرة يفرز فى يسر وسرعة ، مع إيقاظ خلايا الذاكرة الناعسة ..

والأهم أننا نستطيع استعادة بعض الذكريات الموروثة ..

الشخص يمكن أن يستعيد ذاكرة الآباء ..

أو الأجداد ..

أو أجداد الأجداد ..

وهذا لا يحدث فى كل الأحوال ، ولكنه يحقّق نتائج إيجابية ، فى سبع عشرة فى المائة من العينات الخاضعة للتجربة ..

والعلماء يعتبرون هذه نسبة كبيرة ، خاصة وأنهم واثقون من أن برامج التنويم المغناطيسى لم تتطوَّر بالقدر الكافى بعد ..

ولكنهم يأملون الكثير فى المستقبل ..

والكثير جدًا ..

فعقول المستقبل ، بعد ربع قرن من الآن ، ستختلف تمامًا عن عقول الحاضر ..

وسائل زرع المعلومات ، تحت النوم الصناعى ، أو التنويم المغناطيسى ، ستتطوَّر كثيرًا ، حتى أن الشاب فى العشرين ،

ستكون لديه خمسة أضعاف علوم ومعارف (آلبرت أينشتين) ..

ثم إنهم سيسعون لإطلاق كل الطاقة الكامنة فى العقل ..

وهى طاقة ليست بالهينة ..

الصبى سيجيد من المهارات ، ما لا يمكن أن يبلغه سوى كهل ، فى زمننا هذا ..

والطفل سيتجاوز عقلية أبويه ..

كل شىء سيتطوَّر ..

ويتحسَّن ..

ويكبر ..

باختصار ، سيصبح الزمن القادم هو زمن العقول ..

كل العقول ..

ويقول العلماء : إنه من الضرورى أن تكون عقول المستقبل أكثر تطورًا بكثير من عقول الحاضر ..

وفى رأيهم ، لابد وأن تبلغ عقول المستقبل سبعة أضعاف ما عليه عقول الحاضر ..

على الأقل ..

ليس بسبب التطوّر البشرى الطبيعى ، ولكن بسبب التطوّر العلمى ، الذى يعد أصحاب هذه العقول لمهام طويلة ..

وعسيرة ..

وخطيرة ..

للغاية ..

* * *

المستقبل حلم جميل ..

حلم طالما راود كتّاب الخيال العلمى ، ومؤلفى الدراما ..

أو هو كابوس مخيف ، كما يراه البعض !!

ولكن من المؤكّد ، فى كل الأحوال ، أن المستقبل يحمل لنا صورة مختلفة تمامًا ، عن صورة العالم ، الذى نحيا فيه الآن ..

صورة ، ربما نعجز حتى عن تصوّرها ..

ولكن ذلك المستقبل يرتبط حتمًا بالفضاء ، بأكثر مما يرتبط بالأرض ، والعقول التى ستتعامل معه ، لابد وأن تمتلك أضعاف أضعاف ما تمتلكه عقول اليوم على الأقل ..

وهذا ليس أمرًا خياليًا ، فالعقول تتطوّر أيضًا ، مع تطوّر الزمن والظروف ، ولعلنا نضرب مثلاً هنا بالطائرات المقاتلة ..

ففى الحرب العالمية الأولى ، كانت الطائرات تطير بسرعات تقل عن سرعة السيارة العادية الآن ، وعلى الرغم من هذا ، كان الطيارون يصفون مناوراته بها بأنها خيالية ، ويعتبرونهم من المجازفين ؛ لأنهم يطيرون بهذه السرعات المخيفة ..

وفى الحرب العالمية الثانية ، كانت سرعة الطائرات قد تضاعفت ثلاث مرات على الأقل ، وظل الطيارون يناورون بنفس المهارة ، وتطوّرت عقولهم ؛ لتتكيّف مع السرعات الجديدة ، ووصفوهم أيضًا بالمغامرين الفرسان ..

أما فى حرب الخليج ، فقد تجاوزت سرعة المقاتلات ضعف سرعة الصوت ، وكان طياروها قادرين على المناورة ، وتحديد الأهداف ، وقصفها ، بهذه السرعات الفائقة ، على الرغم من أن هذا يحتاج إلى واحد على عشرين من الوقت ، الذى كان يحتاج إليه من قبل !!

العقول إذن تتقدّم ..

وتتطوّر ..

وتتسارع ..

عشرون ضعفًا نمت عليها العقول ، فى أقل من قرن واحد من الزمان ..

فماذا عن عقول المستقبل ؟

فى المستقبل ، يخطّط العلمـاء لإرسال رحلات فضائية خارج حدود مجموعتنا الشمسية ، بسرعات قد تقترب من سرعة الضوء ، وهى ليست رحلات رقمية إليكترونية ، مثل الرحلات السابقة ، التى خرجت لاستكشاف الكواكب ..

إنها رحلات بشرية ..

رحلات سيقوم بها ملاحون بشريون ، يقطعون ملايين الكيلومترات فى الفضاء ، ويواجهون مالم يواجهه بشر من قبل ..

شىء أشبه بأفلام الخيال العلمى ، ولكن على أرض الواقع ..

أو بعبارة أدق ، فى فضاء واقعى ..

وملاحون كهؤلاء لا يمكن أن يكونوا مجرد ناس عاديين ..

سيكونون حتمًا من المتفوقين ..

وفى كل مضمار ..

وستكون عقولهم حتمًا ذات طبيعة خاصة جدًا ، يمكنها احتمال الضغط والعزلة لفترات طويلة للغاية ، لن تبلغ أسابيع وشهورًا ، بل سنوات وسنوات ، فى فضاء سرمدى متناه ، يبدو أوله كآخره طوال الوقت ..

ومن الضرورى أن يبلغوا أهدافهم ، وهم فى تمام الصحة والعافية ، جسديًا وعقليًا ؛ حتى يمكنهم القيام بمهامهم على أكمل وجه ، وإجراء ترتيبات العودة إلى الأرض ..

هذا لو عادوا ليجدوا الأرض (وهو ما سنشرحه بالتفصيل فى موضوع تال) ..

لابد إذن من إعداد الملاحين ، جسديًا وذهنيًا وعقليًا ؛ لمواجهة مثل هذه الظروف ؛ لذا فهم يتلقون تدريبات لياقة بدنية عالية وشاقة ، ويدرسون بجد وكد ؛ لتوسيع مداركهم وزيادة قدرتهم على الاستيعاب ، وتكثيف معلوماتهم ، مع ملاحظة أنه يتم اختيارهم أساسًا ممن يمتلكون معدلات ذكاء مرتفعة ..

يتبقى إذن برنامج تطوير عقولهم ..

وهذا البرنامج ليس عسيرًا ، كما قد يتصوّر البعض ، وإنما هو منظّم دقيق ، يعتمد بالدرجة الأولى على تحفيز كل خلايا المخ ، وإطلاق الطاقات العقلية الكامنة ؛ لذا فهم يمارسون ما يشبه اليوجا ، ويخضعون لجلسات تركيز واسترخاء مدروسة ، ولبعض جلسات التنويم المغناطيسى ، ويمارسون ما يشبه ألعاب الكمبيوتر ، التى تعتمد على سرعة التقدير والاستجابة ..

راقب طفلاً فى العاشرة ، يجلس أمام لعبة من ألعاب الكمبيوتر ، حيث تبرز أمامه أهداف عشوائية ، من أماكن مختلفة من الشاشة ، بسرعات كبيرة ، وعليه أن يلتقط تلك الأهداف ، ويطلق عليها سلاحه ، ويقصفها فى الوقت المناسب ، وإلا خسر المباراة ..

راقبه لمدة أسبوع ، وانظر كم ستتطورّ سرعة استجابته ، وتتحسَن نتائجه فى اللعبة ..

هذه اللعبة ، ومثيلاتها ، لو تم استخدامها دون إفراط ، هى وسيلة ممتازة ؛ لتنمية العقول ..

ولكن لاحظ بشدة عبارة (دون إفراط) ..

فالإفراط فى ألعاب الهجوم الإليكترونية ، يؤدى إلى نتائج عكسية تمامًا ؛ إذ أن المخ البشرى غير مؤهَل للتعامل بهذه السرعات طوال أوقات عديدة ، فإذا ما أخضعته قصرًا لهذا سيصيبه ما يشبه الصرع ، فيصبح الشخص عصبيًا مهتاجًا ، وتنخفض كفاءته العقلية تدريجيًا ، حتى يفقد التركيز تمامًا ، فى غضون عقدين من الزمان على الأكثر ..

عقول المستقبل إذن لابد وأن تخضع لتوازن دقيق مدروس ..

توازن يمنحها ما لا تمتلكه عقول اليوم ..

توازن تصنعه الضرورة ، ويصنعه العلم ..

والهدف ..

والزمن ..

للمستقبل .

* * *

روايات مصرية للجيب
كوكتيل ٢٠٠٠
طب ليه ؟!
(مذكرات)

2ـ شقاوة ..

فى طفولتنا كنا عفاريت بحق ..

كنت أكبر أشقائى ، ولى ثلاث شقيقات ، وكلنا نقيم فى شقة هادئة ، فى حى جميل ، أمام مبنى محافظة الغربية مباشرة (أصبح الآن مبنى مجلس مدينة طنطا) ..

شقتنا كانت ، ولاتزال ، من ثلاث حجرات ، واحدة كانت لأبى وأمى ، وثانية لحجرة السفرة ؛ لأن والدتى تجيد الطهى ، وتعشق إقامة الولائم للأهل والأصدقاء ، وثالثة كنا ننام فيها كلنا فى طفولتنا ..

والدى كان (رحمه الله) محاسبًا قانونيًا ، فى شركة من شركات القطاع الخاص ، وأمى ربة منزل مثقفة متعلمة ، وتجيد كل الفنون المنزلية ، بالإضافة إلى الرسم أيضًا ..

فى ذلك المنزل ، نشأت وإخوتى ..

كنا ثلاثة ، يفصلنا عام بين كل واحد وآخر ، ثم تأتى شقيقتنا الصغرى ، التى تصغرنى بعشرة أعوام كاملة ، والتى كنت ومازلت أعتبرها ابنتى الكبرى ، بأكثر مما هى شقيقتى ..

ولقد عجزت أمى عن السيطرة علينا بحق ..

فذات يوم ، مازلت أذكره حتى الآن ، كما لو أنه حدث أمس ، كنا فى أول أيام العيد ، وكان أبى يمنعنا من استخدام الصواريخ الحارقة ، التى كانت منتشرة فى تلك الأيام ؛ لذا فقد كنا نشتريها سرًا ، ونشعلها فى الشرفة ، لنستمتع برؤية الشرارات النارية ، الشبيهة بالنجوم ، التى تتطاير منها ..

وفى أول أيام العيد ، اشترينا صاروخين سرًا ، أنا وشقيقتى ، ولكن أخوالى كانوا يجلسون مع أمى وأبى فى الشرفة ، ونحن نتحرق شوقًا لإشعال الصاروخ ؛ لذا فقد اخترنا ما تصورنا أنه مخبأ آمن ..

أسفل مقعد الصالة الكبير ..

وبمنتهى الحماس ، أشعلنا الصاروخ ، وتتطايرت شراراته ، وصفقنا جزلاً ..

ثم فوجئنا بالمقعد كله يشتعل ..

تعالت صرخاتنا ، وفررنا من تحت المقعد ، وهرع أبى وخالى إلى الصالة ، وحملا المقعد معًا وهو مشتعل ، ووضعناه فى الحمام تحت الدش ..

ولا داعى لوصف العلقة ، التى حصلنا عليها ، فى أول أيام العيد !!

مرة أخرى ، كان والدى يجرد بعض الملفات القديمة ، وأخرج كل ما لا يحتاج إليه منها ، ووضعه فى الشرفة ..

ولأسابيع طويلة ، اعتدنا رؤية الملفات القديمة فى الشرفة ، وكنا نعلم أنها مهملة ، ولا أحد يحتاج إليها ..

وذات يوم ، كان المحافظ يمر فى شارعنا ، متجهًا إلى مبنى المحافظة ، ولست أدرى لماذا تصورت وشقيقاتى أن أفضل وسيلة لتحيته ، هى أن نلقى عليه الأوراق الممزّقة من النافذة ..

وليوم كامل ، رحنا نمزق تلك الملفات القديمة إلى قطع ورقية صغيرة ، ملأت وعاءً كبيرًا ..

وفور مرور موكب المحافظ ، ألقيناها عليه ..

ومن المؤكد أن العلقة كانت أكبر فى تلك المرة ؛ ربما لأنها علقة سياسية أيضًا ..

كنا عفاريت ، ولكننا ـ شقيقاتى وأنا ـ كنا نتمتع بشهامة كبيرة ، مع بعضنا البعض ، فلم يحاول أحدنا أبدًا التنصل من العقاب ، بإلقاء التبعة على آخر ، ولم يش أحدنا بشقيقه قط ، وإنما كنا نفضل العقاب الجماعى ، على عقاب أحدنا بمفرده ..

وإذا ما عوقب أحدنا وبكى ، كنا كلنا نبكى ، كما لو أن العقاب قد طالنا جميعًا ..

لم تكن هذه سمتنا وحدنا ، وإنما كانت سمة أطفال العائلة كلهم ؛ إذ كنا مجموعة كبيرة ، فى سن متقاربة ، نتشارك كل

شىء تقريبًا ، ونلتقى فى منزل جدى ، فى أيام الخميس ، وفى كل الأعياد والعطلات الرسمية ..

ومنزل جدى هذا كان من المنازل القديمة ، ذات ست الحجرات ، وكل حجرة منها بحجم شقة كاملة ، من شقق هذه الأيام ، حتى أنه هناك حجرة ، كنا نجلس فيها جميعًا ، وكانت تتسع لكل العائلات ، وعلى الرغم من هذا ، فنحن نطلق عليها اسم (الحجرة الصغيرة) ..

وجدتى لأمى كانت تعشق ـ كمعظم أقرانها ـ تربية الطيور المنزلية والأرانب ، وكان سطح منزلها أشبه بمزرعة كاملة ، تجد فيها كل الأنواع تقريبًا ، من بط ، وأوز ، ودجاج ، وفراخ رومية ، وأرانب ، وأكشاك للحمام ..

وفى كل صباح ، عندما نقيم مع جدتى ، كنا نتناول إفطارًا من البيض الطازج ، من مزرعتها الصغيرة على السطح ..

وعلى الرغم من أن طنطا مدينة وليست قرية ريفية ، كانت جدتى شديدة الاعتناء بطيورها تقضى معها ساعتين على الأقل يوميًا ، ومن أمتع لحظات حياتنا أن نصعد معها إلى السطح ، ونجرى خلف البط ، أو نداعب الأرانب الصغيرة ..

وفى نهاية الشهر ، عندما تقل النقود ، كانت جدتى تصعد إلى السطح ، وتنتقى بعض الطيور ، لتجعل منها غذاءً لنا ، وكنا نعلم أن منزل جدى فى ضائقة مالية ، كلما أكثرنا من أكل البط والديوك الرومية هناك !..

ولم أر جدتى فى حياتى كلها حزينة ، بقدر ما رأيتها ، عندما سطا أحد اللصوص على طيورها ذات يوم ، ولست أدرى حتى كيف فعل هذا ، ولكنها صعدت ذات صباح ، فلم تجد إلا عددًا قليلاً منها ..

بعدها ، قرَّر خالى أن يبتاع كلب حراسة ..

وأصبحت لدينا لعبة جديدة ..

كان الكلب ضخمًا مخيفًا ، ولكننا كنا نلعب معه طوال الوقت ، ونعامله على نحو لست أدرى كيف كان يحتمله ، فقد كانت شقيقتى الصغرى تمتطيه كالحصان ، والكبرى تشد أذنيه كلما رأته ، وأنا أتعلق بذيله ، وعلى الرغم من هذا ، فلم يحاول حتى أن يخدش أحدنا ، ولو مرة واحدة ..

ومن الواضح أن هذا لم يرق للصوص ، الذين أعجزهم وجود كلب حراسة عن سرقة الجيل التالى من الطيور ، فألقوا إليه قطعة لحم مسمومة ، قضت عليه من ساعته ..

وأحضر خالى كلبًا ثانيًا ..

وثالثًا ..

ورابعًا ..

وفى كل مرة ، كان اللصوص يدسون له السم ، ويسرقون الطيور من السطح ، حتى اقترح أحدهم إحضار كلب صغير ، وتربيته فى المنزل ، بحيث يعتاد ألا يأكل إلا من يد صاحبه ..

ونفذ خالى النصيحة ، وأحضر جروًا أصبح لعبتنا أيضًا ، وارتبط بنا بشدة ، حتى أنه كان يصرّ على توصيلى إلى منزلنا ، كلما غادرت منزل جدى ، ثم يعود إلى مقره مرة ثانية ..

ونجحت الفكرة نجاحًا مدهشًا ، وألقى خالى القبض على لصين بالفعل ، بفضل كلبه الجديد ..

وامتنع اللصوص عن سرقة مزرعة جدتى ..

ومع الوقت ، تزاوج الكلب ، وجاء جروان صغيران ، ثم ثلاثة ، وأضيفت الكلاب إلى مزرعة السطح ، وأصبحت أكثر خطرًا على الطيور من اللصوص أنفسهم ..

ولست أدرى متى بدأ اهتمام جدتى بتربية الطيور يخف حتى تلاشى تمامًا ..

ففى مرحلة دراستى الجامعية ، عندما أقمت فى منزل جدى إقامة دائمة ، لم يكن لدى جدتى سوى علبة من الكارتون ، بها بعض الكتاكيت الصغيرة ، ولكن يبدو أن انشغالها بالعناية بى عوضها عن تربية الطيور ، فنسيت هذا تمامًا ..

نعود إلى فترة الطفولة ، وإلى شقاوتنا ، التى مهما بلغت ، فلن تبلغ ما فعلته وحدى بأمى ، التى فوجئت ذات يوم بأصحاب المحال فى الشارع يطرقون بابها ، ويخبرونها فى هلع أن ابنها الوحيد يسير على الإفريز الخارجى للشرفة ..

وهرعت أمى إلى الشرفة ، ونحن نقيم فى الطابق الثالث ، فوجدتنى أسير على الإفريز الخارجى بالفعل ، مقلدًا أحد أفلام المغامرات ، التى شاهدتها فى السينما ..

وعلى الرغم من هلع أمى ورعبها ، فقد تماسكت تمامًا ، وطلبت منى فى هدوء أن أعود إلى الداخل ، فأخبرتها فى حماس أننى أفعل ما فعله البطل فى الفيلم ، فابتسمت فى عصبية ، وكررت طلبها بالعودة .. وعدت إلى الشرفة ..

وكان يومًا عصيبًا ..

ولكن المدهش فى الأمر هو أن أمى لم تبلغ أبى قط بما حدث ، وحاولت إخفاء الأمر ، حتى لايعاقبنى عليه ، ولكنه علم من أصحاب المحال فى الشارع ، و ...

والبقية معروفة ..

ولكن على الرغم من صرامة أبى فى التعامل معى ، كان شديد التشجيع ، فى الوقت ذاته ، لكل موهبة تظهر علىّ ..

ورثت الرسم عن أمى ، ولكن اهتمامى الأوّل ، منذ أيام الدراسة الابتدائية كان كتابة القصص ..

كتبتها فى مدرسة الإنبابى الابتدائية فى (طنطا) ..

ولهذا قصة ..

* * *

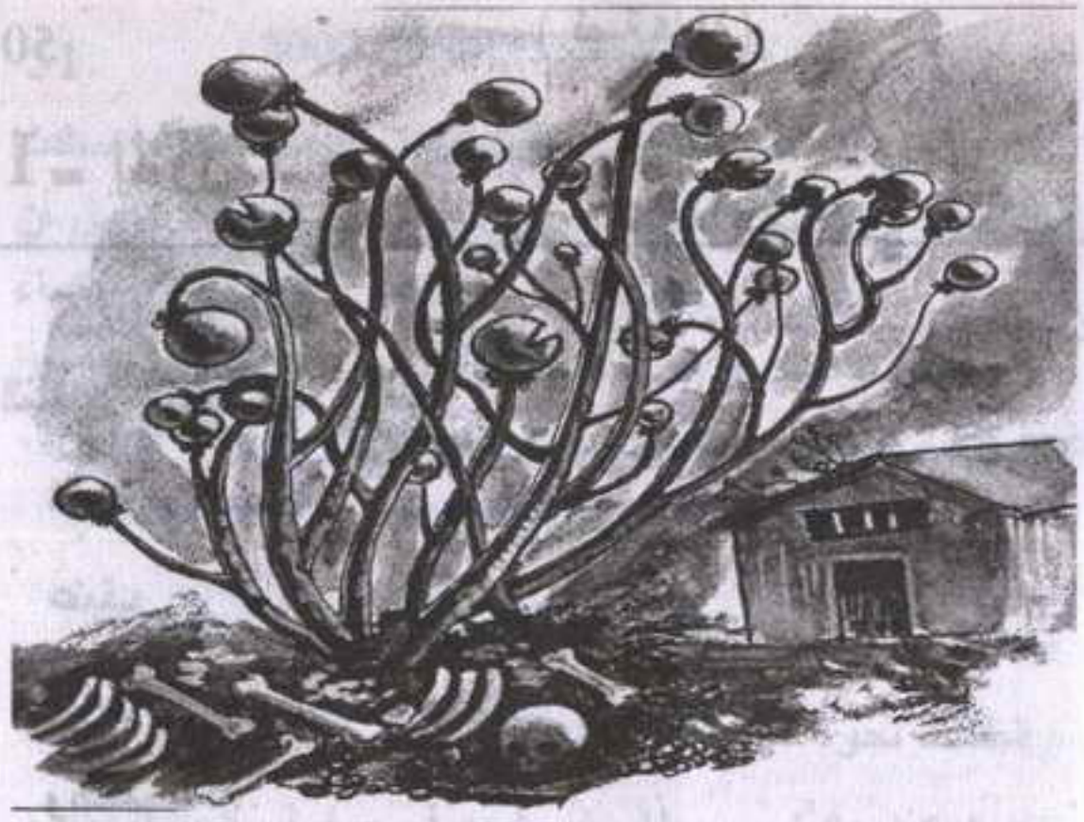

بـــذور ..

(قصة كاملة)

من أعمق أعماق الفضاء جاءت ...
وفى تربة الأرض زرعت ...
وفى غفلة من الزمان نمت ...
وترعرعت ...
وبدأت مرحلة جديدة ، فى أرض غريبة ...
مرحلة ، جعلت نموها يزرع الرعب ، فى تلك المنطقة الريفية الهادئة ..
رعب جديد ...
ورهيب ...
بلا حدود ...

و. نبيل فاروق

1ـ الأزل ..

هنـاك .. فى أعمق أعمــاق الكـون ، ومنـذ ملاييـن ملاييـن السنين ، حدث ذلك الانفجار ..

انفجار رهيب ..

عنيف ..

شامل ..

وصامت(*) ..

جسم صناعى هائل ، جاب الكون لسنوات وسنوات ، سقط أخيرًا فى فخ نيزكى رهيب ..

انهالت عليه النيازك الهائلة فى كل صوب ..

أصابته ..

وحطمته ..

وسحقته ..

ثم انفجر ..

(*) الصوت لا ينتقل عبر الفراغ علميًا .

ومع انفجاره ، انمحت آخر سلالة حضارة راقية مدهشة ، سادت الكون يومًا ، ووضعت بصمتها على مكان مـن كواكبـه ، قبل أن تتعرض إلى كارثة رهيبة ، انتهتا بفرار النخبة المنتقاة ، من حكماء وعلماء ذلك الكوكب ، فى مركبة فضائية هائلة ، راحت تبحث ، عبر الكون كله ، عن كوكب بديل ، يصلح لاستمرارها ، وإعادة نموها ..

ولقد رصدت ذلك الكوكب بالفعل ..

رصدته على مسافة عشر سنوات ضوئية ..

وانطلقت نحوه ..

كان كوكبًا بدائيًا ، بسيطًا ، لم يشهد فى صفوف الحيـاة سوى طراز من الزواحف الهائلة ، وأنواع ضخمة مـن نباتـات وحشية مفترسة ، ومتوغلة ..

ووفقًا لتقديراتهم ، كانوا سيصلون إلـى ذلـك الكوكب ، عندما يبدأ خطواته الأولى ، فى سلم الحضارة ..

وكانت خطتهم تعتمد على تبنى تلك الحضارة ..

ورعايتها ..

وشق طريق النماء أمامها ..

وفى سبيل هذا ، راح علماء تلك الحضارة القديمة ، يسعون لاستنباط أنواع وأنماط حيوانية ونباتية جديدة ، تتوافق مع مناخ

وطبيعة ذلك الكوكب الأزرق ، الذى يحتل الموقع الثالث من شمسه ، التى يقل حجمها عن حجم شمسهم ..

وعبر الكون السرمدى ، انطلقت مركبتهم العملاقة ..

وانطلقت ..

وانطلقت ..

واقتربت من تلك المجرة ، التى انتقوا من بينها كوكبهم البديل ..

كل شىء فى رحلتهم كان محسوبًا بمنتهى الدقة ..

السرعة ..

والمسافة ..

والمسار ..

و ...

ولكن فجأة ، اختل توازن إحدى المجموعات الشمسية النجمية ، التى اقتربوا منها ..

ومع اختلال التوازن ، اختلّ مسار كواكبها ..

وارتطم أحد الكواكب بآخر ..

وانفجر ..

ومع انفجاره ، انطلقت فى الفضاء مئات من القطع الصخرية ، من مختلف الأحجام ..

انطلقت بسرعة الانفجار ..

وإلى ما لا نهاية(*)..

وفى المركبة العملاقة ، تم رصد ذلك المطر المنهمر بلا حدود ..

ولقد حاول قادتها المناورة ، أو زيادة السرعة ؛ للإفلات من ذلك الوابل الرهيب ..

ولكن مساحة الانتشار كانت كبيرة ..

أكبر مما ينبغى ..

لذا ، فكل المناورات والمحاولات لم تفلح ..

وانهالت تلك الصخور الهائلة على المركبة ..

أصابتها فى موضع ..

وثان ..

وثالث ..

ثم أصابت خزان الطاقة الرئيسى ..

(*) مع غياب المقاومة في الفضاء ، يكتسب الجسم سرعته ، على نحو شبه دائم ، حيث لا توجد عوامل لتقليل السرعة .

وحدث الانفجار ..

ومعه ، تحطّمت المركبة العملاقة إلى ألف ألف قطعة ..

وتناثرت فى كل الاتجاهات ..

أجساد العلماء ، والحكمـاء ، والقـادة ، تنـاثرت فـى الفضـاء ، وانتفخت مع غياب التوازن فى الضغط ، ثم انفجرت ..

وغرق الفضاء بموجة من الأشلاء ..

أشلاء حضارة سادت ..

ثم بادت ..

ومن بين كل الحطام والأشلاء والمتناثرات ، كـان ذلك الوعـاء .. وعاء من معدن قوى ، مقـاوم للانفجـار ، قذفتـه قـوة الدفـع إلـى أعمق أعماق الفضاء ..

ولسنوات وسنوات ، ربمـا بلغت الآلاف ، أو حتـى الملايين ، ذلك الوعـاء ينطلـق فـى الفضـاء اللانهـائى ، بسـرعة محـدودة نسبيًا ، حتى بلغ أخيرًا مجموعة شمسية بعينها ..

ولقد تجـاوز كواكبهـا الثمـانى الأولـى(*) ، دون أن يسـقط فـى المجال الجذبى لأحدهما ..

(*) فى أواخر التسعينات ، تم كشف الكوكب العاشر ، فى مجموعتنا الشمسية ، وأطلق عليه العلماء اسم (سى . دى) ، ومؤخرًا ، تم رصد ما يؤكده العلمـاء أنـه الكوكب الحادى عشر والأخير فى المجموعة .

ثم بلغ الكوكب الثالث ، بعدًا عن شمسها ..

ومع سرعته الهائلة ، ارتطم بسطح القمر الأوحد لذلـك الكوكب ، ثم ارتد عنه ، واتجه بسرعة أقل نسبيًا ، نحـو الكوكـب نفسـه ، ودخل مجاله الجذبى والجوى ..

ومع دخوله المجال الجوى لكوكب الأرض ، واحتكاكه به بتلـك السرعة ، التى ضاعفتها الجاذبية ، راحت درجة حرارة الوعاء ترتفع..

وترتفع ..

وترتفع ..

أى معدن آخر ، كان سينصهر حتمًـا ، فـى مثـل تلـك الحـرارة الهائلة الرهيبة ..

ولكن ذلك الوعاء احتمل ..

وصمد ..

وبقى ..

حتى ارتطم بالأرض ..

وكأنما أصرّ ذلك الوعاء العجيب ، على أن يكون وصولـه إلـى أرضنا علامة على ما سيفعله بهـا وبنـا ، فلـم يهبـط فـى أرض فضـاء ، وإنمـا اختـار السـقوط فـوق منطقـة ريفيـة هادئـة ، فـى الساعات الأخيرة من ليلة شتاء ..

ومع سرعته الهائلة ، كان الارتطام عنيفًا ..

قاسيًا .

مخيفًا ..

إلى أقصى حد ..

ففى قلب تلك المنطقة الآمنة ، دوى انفجار رهيب ..

انفجار أطاح بثلاثة منازل متجاورة ، وأشعل النيران فى أربعة أخرى محيطة بها ، وأيقظ المنطقة كلها ، فى فزع وارتياع ، ما لهما من مثيل ..

ولقد استمرت النيران مشتعلة ، حتى صباح اليوم التالى ، على الرغم من تآزر الجميع لإطفائها ..

وعبر كل الطرق ، المؤدية إلى تلك المنطقة ، دوت صفارات سيارات الإطفاء ، وراحت تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

ومع انبلاج الصباح ، تمت أخيرًا السيطرة على النيران ..

وبدأ رجال المعمل الجنائى يعملون ، بحثًا عن الأسباب ، التى أدت إلى انفجار هائل كهذا ، ونيران مقاومة كتلك ، خاصة وأن المكان

الوحيد ، الذى كان يحوى مواد قابلة للاشتعال أو الانفجار ، كان مزرعة المهندس (وليد عزمى) ، والتى تبعد كيلو مترين كاملين ..

وكان من الطبيعى أن يتواجد (وليد) فى منطقة الكارثة ، منذ بداية الموقف ، وحتى تمت السيطرة عليه ..

وكان وجوده هو البداية ..

بداية أكبر قصة شهدتها تلك المنطقة ..

قصة الرعب ..

الشامل .

* * *

« هل توصلتم إلى شىء ؟! »

ألقى المهندس (وليد) سؤاله هذا فى عصبية ، على مسامع (سامح) ، ضابط المباحث فى المنطقة ، فهزّ هذا الأخير كتفيه ، مجيبًا :

ـ ليس بعد ..

قال (وليد) فى حدة :

ـ ماذا تعنى بليس بعد هذه ؟! إننا نتحدث عن كارثة ، وينبغى أن تبذلوا أقصى جهدكم ، للعثور على تفسير ، وإلا فلن يغمض لأحد هنا جفن ، والكل يتوقّع أن تتكرّر الكارثة ، فى أية لحظة .

بدا (سامح) أكثر توترًا ، وهو يقول :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا .

قال (وليد) بنفس الحدة :

ـ من الواضح أن هذا غير كاف .

استدار إليه (سامح) بحركة حادة ، وبدا لحظة وكأنه سينفجر فى وجهه ، قبل أن يمسك يده ، ويجذبه جانبًا ، بعيدًا عمن يفحصون المكان ، وهو يقول فى صرامة :

ـ تعال .

شعر (وليد) بدهشة عارمة ، منعته من الاعتراض أو المناقصة ، حتى صارا وحدهما ، فاستدار إليه (سامح) ، قائلاً فى عصبية شديدة :

ـ اسمعنى جيدًا .. ما حدث هنا يقلق (القاهرة) بشدة ، وهم يضغطون بشدة ؛ للوصول إلى نتائج ، ونحن نعمل فعليًا ، بضعف الجهد المعتاد ، وفى الطريق إلى هنا فريق من الخبراء ، من مختلف التخصصات ؛ فى محاولة لمعرفة تفسير ما حدث .

شعر (وليد) بأنفاسه تتلاحق ، وهو يسأله :

ـ ألا يوجد حتى تصوّر أولى ؟!

هزّ (سامح) رأسه نفيًا ، بنفس العصبية ، وهو يقول :

ـ للأسف .. كل ما لدينا يبدو أقرب إلى الخزعبلات والشعوذة ، منه إلى التفسير العلمى أو المنطقى ، فهناك مزارع يقول : إنه رأى جنيًا يهبط من السماء ، على بساط من نار ، ويشعل ذلك اللهب فى المنازل ، وخفير المنطقة أيّد قوله ، وأقسم أنه شاهد ذلك الجنى بنفسه ، قبيل الانفجار مباشرة .

انعقد حاجبا (وليد) ، وهو يقول :

ـ جنى من السماء ؟!

لوّح (سامح) بذراعيه ، قائلاً فى عصبية :

ـ أرأيت ما نواجهه ؟!

مال (وليد) نحوه ، وهو يسأله فى لهفة :

ـ أرأيت أنت أنه لديكم الكثير ، ولكنكم لم تدركوا هذا ؟!

فغر (سامح) فاه ذاهلاً ، وهو يكرّر :

ـ الكثير ؟!

أشار (وليد) بيده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. لديكم شاهدان ، تحدثا عن نيران هبطت من السماء .. ربما دفعهما جهلهما ، وضعف ثقافتهما ، وموروثاتهما الريفية ، إلى ربط هذا بالجنى والعفاريت ، إلا أنهما ، وبلا شك ، اتفقا على رواية واحدة .

سأله (سامح) ، فى فضول يفوق العصبية :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

مال (وليد) نحو أكثر ، مجيبًا بابتسامة واثقة :

ـ نيزك ؟!

حدَّق فيه (سامح) ، مرددًا ، فى شك حذر :

ـ نيزك ؟!

أومأ (وليد) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. نيزك هبط من السماء ، كما تهبط آلاف النيازك سنويًا على الأرض ، ولكنه كان أكبر حجمًا ، أو أوفر حظًا ، فلم تحترق مادته بالكامل ، مع احتكاكها بالغلاف الجوى ، كما يحدث طوال الوقت منذ الأزل(*) .

بدا الشك على وجه (سامح) ، وهو يقول :

ـ ولماذا ينفجر ؟!

أجابه (وليد) فى سرعة :

(*) تنهال سنويًا مئات النيازك الصغيرة ، على كوكب الأرض ، فى مختلف بقاعه ، إلا أنها تحترق بالكامل ، أثناء احتكاكها بالغلاف الجوى ، ومن النادر أن يصل بعضها إلى سطح الأرض ، إلا أن هذا ليس مستحيلاً ، وهناك عشرات المشاهدات لهذا ، منها حجم هائل ، ترك فجوة شديدة الضخامة ، فى صحراء (أمريكا) .

ـ درجة حرارته ، القريبة من درجة الانصهار ، وسرعة وعنف ارتطامه بالأرض ، يصبح أشبه بالقنبلة ، و ...

قاطعه (سامح) ، وهو يكمل فى انفعال :

ـ ويتفتَّت .

تطلَّع إليه (وليد) فى دهشة ، فلوَّح بذراعه ، مستطردًا فى عصبية وانفعال أكثر :

ـ هذا هو التفسير الوحيد ، الذى يمكن أن يقتنعى بما تفترضه ، فمع كل البحث ، الذى قمنا به ، طوال ثلاثة أيام كاملة ، لم نعثر على أى شىء ، أو أى جزء ، من ذلك النيزك الوهمى .

ابتسم (وليد) ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ ومن المستحيل أن تعثروا عليه هنا .

هتف فى حدة :

ـ ولماذا ؟!

أجابه (وليد) فى حزم :

ـ ولماذا ؟!

أجابه (وليد) فى حزم :

ـ لأنه انفجر .. والانفجار يعنى موجة تضاغط شديدة العنف ،

ستلقى أية بقايا من ذلك الشيء ، إلى مسافات طويلة ، ومع عنف الانفجار ، الذى شعرته به فى فيلتى ، التى تبعد كيلومترين عنا ، والتى ارتجت كلها تقريبًا ، لن يدهشنى ألا تعثر على بقايا ، إلا على مسافة كيلو متر على الأقل .

انعقد حاجبا (سامح) ، وهو يستمع إليه ، قبل أن يلتقط هاتفه المحمول ، ويضغط أزراره فى عصبية ، قائلاً :

ـ مساء الخير يا سيادة اللواء .. أنا (سامح) .. (سامح النوتى) .. كلا يا سيدى .. لم نعثر على أى شيء بعد .. الواقع أننى أطلب زيادة رقعة البحث ، ولدى مبرراتى ..

ابتسم (وليد) ، عندما رآه ينقل كل ما سمعه منه إلى رؤسائه ، وانسحب فى هدوء ، متجهًا إلى سيارته ، ولم يكد يدير محركها ، حتى اتجه خفير المنطقة نحوه ، وهمس فى توتر :

ـ (وليد) بك .. لدى شيء ، أظنه سيثير اهتمامك .

التفت إليه (وليد) بنظرة متسائلة ، فتلفَّت الخفير حوله ، فى توتر ملحوظ ، قبل أن يدس يده داخل جلبابه ، ويخرج منه وعاءً معدنيًا صغيرًا ، ناوله إليه ، هامسًا :

ـ هذه قطعة أثرية .. أليس كذلك ؟!

التقط (وليد) ذلك الوعاء الصغير ، وقلَّبه بين أصابعه فى حيرة ، وهو يحاول فهم ماهيته ..

كان له ملمس بارد ناعم ، ووزن شديد الخفة ، على نحو لا يتناسب مع حجمه ، إذ كان أسطوانى الشكل ، يبلغ قطر قاعدته سبعة سنتيمترات تقريبًا ، وطوله خمسة سنتيمترات ، وكان مغلقًا من كل الاتجاهات ، إلا أنه مجوف حتمًا ، وبداخله أشياء صغيرة ، يمكنك أن تسمع صوتها ، عندما ترجه فى يدك ..

أما سطحه ، فكان يحوى بعض النقوش غير المألوفة ، والتى لا تشبه اللغة الهيروغليفية ، أو أية لغة مألوفة ..

وفى حيرة ، سأل (وليد) الخفير :

ـ أين عثرت على هذا الوعاء ؟!

همس الرجل بمنتهى الحذر :

ـ فى حقلى .. كنت أحدثه صباح اليوم ، فعثرت عليه تحت تربته .

ما أن سمع (وليد) هذا ، حتى قفزت إلى ذهنه فجأة ، ضرورة أى يبلغ (سامح) بأمر ذلك الوعاء ، إلا أن شيئًا ما ، بين فضوله وشغفه ، جعله يعدل عن هذا ، وهو يقول للخفير :

ـ إنها ليست قطعة أثرية ، ولكننى أعتقد أنها قد تساوى شيئًا .

سأله الخفير فى لهفة :

ـ أكثر من خمسين جنيهًا ؟!

ابتسم (وليد) ، وهو يقول :

ـ ربما مائة جنيه أيضًا .

برقت عينا الخفير فى لهفة أكثر ، وهو يهتف :

ـ حقًا ؟!

وتمت الصفقة ، خلال دقائق ثلاث ..

الخفير حصل على ورقة بمائـة جنيـه ، و(وليـد) حصـل علـى ذلك الوعاء الصغير ، وعاد به إلى فيلته ..

وكانت البداية ..

الرهيبة .

* * *

عندما أعلنت عقارب الساعة تمام الخامسة فجرًا ، لم تكن عينا المهندس (وليد) قد شهدتا النوم لحظة واحدة بعد ..

لقد قضى ليلته كلها يقلّب ذلك الوعاء المعدنى بين يديه ، بحثًا عن أية وسيلة للنفاذ داخله ، ومعرفة ما يحويه ، وما يصدر ذلك الصوت الواضح ، عندما يرجه رجًا ..

أما تلك النقوش العجيبة ، التى تراصت على إطار الوعاء ، فلم يجد لها مثيلاً قط ، فى كل القواميس ، التى تحويها مكتبته ، التى

ورثها عن والـده الراحـل .. حتى شبكة الإنترنت ، لم يعثر فيهـا على رمز واحد ، يشبه أى من تلك الرموز العجيبة ..

لذا ، فقد راح عقله يضع عشرات الاحتمالات ..

احتمالات علمية ..

ومنطقية ..

وحتى جامحة ..

وعندما سمع الساعة الكبيرة ، فى بهو المنزل ، تدق تمام الخامسة ، بدأ ينتقل إلى الاحتمالات الخرافية والمجنونة ..

تذكّر ذلك الزنبق الأحمر ، الذى يتحدثون عنه ، ويشيرون إلـى وجوده فى مقابر الفراعنة ، وينسـبون إليـه كونـه طعام الجان ، والوسيلة المثلى لتسخيرهم ، وفرض إرادة البشر عليهم ..

إنه لم ير يومًا خرطوشة ، من خراطيش ذلك الزنبق المزعوم ، إلا أن ما يرددونه عنها ، هو أنها مغلقة تمامًا ، ولا توجد وسيلة لفتحها إلا بتحطيمها ..

ربما كان هذا الوعاء هو أحدها إذن ..

ولكنه يبدو أحدث من أن يتواجد من أيام الفراعنة ..

ثم إن هذا المعدن يختلف ، عن أى معدن آخر ، رآه فى حياتـه كلها ؛ إذ أن حجم الوعاء لا يتناسب قط مع وزنه البالغ الخفة ..

هذا بالإضافة إلى أن ما بداخله ليس سائلاً حتمًا ..

إنها قطع صلبة ..

أو شبه صلبة ..

أعاد عقله المجهد مراجعة كل ما دار به ، منذ أعطاه الخفير الوعاء ، وحتى الفجر ، ثم توقف عند نقطة واحدة ، بدت له وكأنها آخر أمل ، لحل هذه المعضلة ..

أن يحطم الوعاء ..

من الواضح أن السبيل الوحيد ، لمعرفة محتواه ، هو كسره ..

وقبل حتى أن تستقر الفكرة فى رأسه ، كان ينتقل بحذائه ، ويسرع إلى كشك صغير ، ملحق بالمنزل ، يمارس فيه هواياته اليدوية المتعددة ..

كان يملك كل الأدوات اللازمة ، لفتح أى وعاء ، مهما بلغت صلابته ؛ لذا فقد بدأ عمله ، وهو واثق من أنه ما أن تشرق الشمس ، حتى يكون قد انتصر على ذلك الوعاء ، وسبر غوره ..

ولكن الساعة بلغت الثامنة ، عندما بلغ إرهاقه مبلغه ..

ولم ينكسر الوعاء ..

لقد استخدم معه كل الوسائل المتاحة ..

مطرقة ثقيلة من الصلب ..

منشار فولاذى ..

مثقاب كهربى ..

وكلها تحطمت وفشلت ..

كلها بلا استثناء ..

وعندئذ فقط ، وثب ذلك الاحتمال فى ذهنه ..

ذلك الوعاء ليس أرضيًا ..

إنه لا ينتمى إلى أى شىء عرفه كوكب الأرض ..

لا يوجد معدن واحد معروف ، يجمع كل هذه الخواص الفيزيائية دفعة واحدة ..

فهو منيع ..

ناعم ..

وخفيف الوزن ، إلى درجة مذهلة ..

إنه وعاء قادم من بعيد ..

من الفضاء ..

وفى لحظة واحدة ، وفور أن وثب الاحتمال إلى رأسه ، تداعت

فى ذهنه كل الأحداث الماضية ..

النار التى هبطت من السماء ..

الانفجار ..

الحرائق ..

إنه ذلك الوعاء حتمًا ..

لقد سقط من السماء ، ومع احتكاكه بالغلاف الجوى ، بدا أشبه بكرة من اللهب ، ومع ارتطامه العنيف بالأرض دوى الانفجار ..

واشتعلت الحرائق ..

ومع الانفجار ، قفز ذلك الوعاء أفقيًا حتمًا ، وسقط بعيدًا ..

بعيدًا جدًا ..

سقط فى ذلك الحقل ..

وفى كل ذرة من جسده ، سرت قشعريرة باردة كالثلج ، مع تلك الفكرة ، التى تفوق كل خيال ..

ولساعة كاملة بعدها ، جلس على مقعد خشبى صغير ، فى ذلك الكشك ، يتطلّع إلى الوعاء بعينين متسعتين ، وعقل خلا من أية مقترحات أو تصورات مستقبلية ..

ثم راح ذهنه يهدأ رويدًا رويدًا ، ويعيد دراسة الموقف ، من منظور مختلف تمامًا ..

ذلك الوعاء هو سبب كل ما حدث ؛ لذا فمن الضرورى أن يسلم إلى الضابط (سامح) ، آملاً أن يستوعب الفكرة المذهلة ..

إنه واجبه ..

وفى شىء من التردُّد ، نهض يلتقط الوعاء ، وأمسكه بيديه معًا ، وشعر بنقوشه البارزة فى انتفاخ راحتيه ، و ...

وفجأة ، تحرّك الوعاء فى يده ..

دار نصفه العلوى إلى اليسار ، ونصفه السفلى إلى اليمين ..

ومع الحركة المباغتة ، انتفض جسد (وليد) فى عنف ، وأفلت الوعاء وتراجع بحركة حادة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فيه ذاهلاً مذعورًا ..

وعلى أرضية الكشك ، أكمل الوعاء حركته ..

ثم انتفخ ..

هكذا ، بكل بساطة ، وبعد المجهود الشاق الرهيب ، الذى بذله طوال الليل ..

لا ريب فى أنه قد ضغط ، دون أن يدرى ، على أحد النقوش ، التى يكمن فيها مفتاح الوعاء العجيب ..

المهم أنه قد انفتح ..

وبكل الذهول ، حدّق (وليد) فى تلك البذور ، التى يحويها الوعاء ..

كمهندس زراعى ، كان يمكنه أن يدرك ، من النظرة الأولى ، أنها بذور نبات ما ..

وكمهندس زراعى أيضًا ، كان يدرك أنها لا تشبه أية بذور عرفها من قبل ، أو حتى رآها فى أى مرجع ..

وبأصابع مرتجفة متردّدة ، مد يده ، يلتقط تلك البذور ، ويتطلّع إليها عن قرب ..

كانت أشبه بحبات اللؤلؤ ، إلا أنها تحوى براعم واضحة ؛ فى أحد أطرافها ..

أما ملمسها ، فقد بدا مخمليًا ، على نحو مدهش ..

وشعر (وليد) بالانبهار ، يغمره ، حتى ليكاد يسيطر على كل مشاعره بلا استثناء ..

إنه أمر مذهل ، لا يمكن أن يصادف الكثيرين ، فى الزمان كله ..

ومصادفة ، لا يمكن أن تأتى عبثًا ..

بذور فضائية ، تقع فى يد مهندس زراعى أرضى ..

يا له من سبق مدهش !!

ولكن ماذا ينبغى أن يفعل بها ؟!

هل يقوم بتسليمها إلى الدولة ؟!

أم ...

توقف طويلاً عند كلمة (أم) هذه ، وراح عقله يرسم صورة ، لم يستطع مقاومتها قط ..

ترى أى نبات يمكن أن تنمو إليه هذه البذور ، لو زرعها فى مناخ كوكب الأرض ؟!

بل أية فائدة ، يمكن أن تعود على العلم ، إذا ما استنبط نباتًا جديدًا ، لم تعرفه الأرض قط ؟!

ماذا لو أنه حوى مادة ، قادرة على شفاء الأمراض ..

كل الأمراض ..

التمعت عيناه ، وهو يتخيَّل النتائج ، والشهرة ، والأضواء ، وجائزة (نوبل) فى العلوم ..

وتوقف طويلاً عند صورة جائزة (نوبل) ..

والتمعت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم اتخذ أخطر قرار ، فى حياته كلها ..

لقد قرَّر إخفاء الأمر ، وإجراء التجربة ..

فورًا .

* * *

2 ـ نمـــــو ..

« لقد صدر القرار بإغلاق ملف القضية .. »

نطق الضابط (سامح) العبارة فى ضيق واضح ، وهو يجلس مع المهندس (وليد) ، فى حديقة فيلا هذا الأخير ، الذى مال نحوه ، يسأله فى لهفة واهتمام :

ـ حقًا ؟!

بدت الدهشة على (سامح) ، وهو يقول :

ـ ولماذا يثير الأمر اهتمامك ، إلى هذا الحد ؟!

اعتدل (وليد) ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً ، وهو يتظاهر باللامبالاة :

ـ ليس اهتمامًا ، ولكنه فضول .. مجرد فضول .

أراد عبارته لا مبالية ، ولكنها حملت ، على الرغم منه ، لمحة من التوتر ، ضاعفت من دهشة (سامح) ، إلا أنه لم يلبث أن ألقى كل هذا خلف ظهره ، وهو يتثاءب ، قائلاً :

ـ إنه أمر طبيعى ؛ فبعد شهر كامل من التحقيقات ، والدوران فى دوائر مغلقة ، لم نعثر على شخص واحد ، من صالحه أن يحدث ما حدث ؛ لذا فقد تم قيد الواقعة ضد مجهول ، باعتبارها ناشئة عن إهمال ، لم يتم تحديده بدقة .

تنهَّد (وليد) فى ارتياح ، وهو يسترخى فى مقعده ، قائلاً :

ـ هذا أفضل بالتأكيد .

تطلَّع إليه (سامح) مرة أخرى فى دهشة ، قبل أن يطلق ضحكة متوترة ، وينهض ، قائلاً :

ـ الواقع أننى لم أعد أفهمك يا (وليد) .

حاول (وليد) أن يبتسم ، وهو يسأله :

ـ ماذا تعنى ؟!

أشار (سامح) بيده ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. منذ ما يقرب من الشهر ، لم تعد (وليد) الذى أعرفه .. لم نعد نلتقى ، أو حتى نتحدث ، وكل العاملين هنا يقولون إنك تقضى معظم وقتك فى تلك الصوبة ، التى أمقتها فى الحديقة الخلفية .

بدا صوت (وليد) متوترًا فى وضوح ، وهو يقول :

ـ إنها ليست صوبة ، بل مجرد كشك خاص ، أجرى فيه بعض التجارب .

ردَّد (سامح) فى حيرة :

ـ تجارب ؟!

أسرع (وليد) يقول ، فى توتر أكثر :

ـ نعم .. تجارب لاستنباط بعض الفصائل النباتية الجديدة .. أمر يفيد مزرعتى ، على المدى الطويل .

تطلَّع إليه (سامح) متسائلاً ، ثم لم يلبث أن هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ إنها أمور لا أفقه فيها شيئًا يا صديقى ، ولكن كل ما أريدك أن تعرفه ، هو أننى دومًا هنا ، إذا ما احتجت إلى شىء .. أى شىء ..

ابتسم (وليد) ابتسامة باهتة ، وهو يتمتم :

ـ أعلم هذا .. أعلم هذا .

تصافحا ، وغادر (سامح) المكان ، مع غروب الشمس ، فتابعه (وليد) ببصره حتى اختفى عن ناظريه ، ثم أسرع إلى ذلك الكشك الجديد ، وفتح القفل الضخم ، الذى يضعه على بابه ، ثم دلف إليه فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يراه أحد ، وأغلق رتاجه من الداخل فى إحكام ، ثم وقف يتطلَّع إلى ذلك النبات الفضائى ، بانبهار لم يفارقه قط ، منذ بدأت التجربة الرهيبة ..

ففى أول الأمر ، كان يخشى ألا تنبت تلك البذور أبدًا ، وألا تناسبها تربة الأرض ، أو مياهنا ، أو مناخنا ..

ولكن تلك البراعم تفتحت فى تربة الأرض ..

ونمت ..

نمت بسرعة مذهلة ، لا ينافسها فيها أى نبات معروف ..

فخلال أسبوع واحد ، بلغ ارتفاعها نصف المتر ..

وفى الأسبوع الثانى ، راحت تلتف حول بعضها ، وبلغ ارتفاعها مترًا كاملاً ..

وعندما مر الأسبوع الرابع تقريبًا ، لم تكن تشبه أى نبات ، رآه فى أى مرجع علمى معروف ..

لقد أصبحت أشبه بكرات مغلقة ..

كرات ضخمة ، يبلغ قطرها مترًا ونصف المتر ، ولها لون وردى ، وملمس مخملى مدهش ..

وردود فعل مذهلة ..

فعندما جرؤ لأول مرة ، على أن يربت عليها ، انكمشت تحت أصابعه لحظة ، ثم لم تلبث أن اقتربت منه ..

تمامًا كما تفعل هرة ، داعبتها فى طريق عام ..

إنها تتمسَّح فى قدمك ، وتلتصق بك ، وكأنما تنشد شيئًا من دفئك وحنانك ..

تلك النباتات أيضًا كانت تفعل هذا ..

كانت تتمسَّح فيه ، كما لو أنها تعرفه ..

بل إنه ما أن يدخل ذلك الكشك ، حتى تلتف كلها إليه ، كما لو أنها تشعر بقدومه وتدركه ..

وكان هذا يسعده بشدة ، ويبعث فى نفسه نشوة ، ما بعدها نشوة ، حتى إنه يقضى نصف يومه فى العناية بها ، والتربيت عليها ..

بل والتحدّث إليها أيضًا ..

ساعات طويلة ، كان يقضيها فى التحدُّث مع نباتاته الفضائية ، وكأنها أطفاله أو تلامذته ..

وعندما يأوى إلى فراشه ، فى نهاية كل يوم ، كان يستعيد حلم (نوبل) والشهرة ، والمجد ، ويحلم طوال الليل بنباتاته ، وهى تنمو ..

وتنمو ..

وتنمو ..

وتنمو ..

ولكن فى تلك الليلة بالتحديد ، لم يمكنه أن ينعم بنوم هادئ ، مثل لياليه السابقة ..

فقد كان الكلاب تعوى بشدة لوقت طويل ، ثم لم يلبث عواؤها أن تحوَّل إلى أنّات ، لاذ بعدها بصمت مطبق ، مع انبلاج الفجر ، مما سمح له بالنوم حتى العاشرة ..

وعندما استيقظ ، كان يشعر بإرهاق شديد ، وصداع عنيف ، جعله يغمغم :

ـ يا له من يوم !!

تثاءب فى تهالك ، ونهض يرتدى ثيابه فى تكاسل ، وهبط إلى حديقة الفيلا ، وما أن فعل ، حتى شعر بحركة غير عادية ، بين العاملين فى المزرعة ، فهتف بأحدهم :

ـ ماذا حدث يا رجل ؟!

بدا الرجل مضطربًا ، وهو يجيب :

ـ يبدو أن بعضهم تسلَّل إلى المزرعة ليلاً ، يا (وليد) بك .

سأله (وليد) فى توتر :

ـ هل سرق شيئًا ؟!

تردَّد الرجل لحظة ، قبل أن يجيب فى عصبية :

ـ فقط أحد كلاب الحراسة .

بدت دهشة عارمة على وجه (وليد) ، وهو يحدِّق فى الرجل ، قائلاً :

ـ كلاب الحراسة ؟! لص يدخل المزرعة ، ويسرق كلب حراسة ؟! أى قول أحمق هذا يا رجل ؟!

نطق عبارته الأخيرة فى عصبية ، ضاعفت من ارتباك الرجل ، وهو يقول :

ـ ليس لصًا يا (وليد) بك .. ليس لصًا .

صاح (وليد) فى غضب :

ـ من سرق كلب الحراسة إذن ؟!

تلفَّت الرجل خلفه فى رعب عجيب ، وكأنما يخشى أن يسمعه شبح خفى ، وبدا شديد التردُّد والخوف ، حتى أن (وليد) صرخ فيه مكررًا :

ـ من سرق الكلب ؟!

مرة أخرى ، تطلَّع إليه الرجل فى رعب عجيب ، ثم تحوَّل صوته إلى الهمس ، وهو يقول :

ـ الأفضل أن تسأل (عوضين) بنفسك .

قال (وليد) فى حدة :

(عوضين) ؟! ولماذا (عوضين) ؟!

كرَّر الرجل ، فى صوت مرتجف :

ـ سله بنفسك .

قالها ، وتحرَّك فورًا ، دون أن ينتظر رد فعل (وليد) ، الذى

تبعه فى توتر ، حتى وصلوا إلى حيث يجلس أحد خفراء المزرعة ، شاحب الوجه ، زائغ العينين ، وحوله عدد من العمال ، يحـاولون تهدئته ..

وفى عصبية ، سأل (وليد) :

ـ ماذا حدث يا (عوضين) ؟!

تطلّع إليه الخفير بعينيه الزائغتين ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ (وليد) بك .. لقد .. لقد كانت هنا .. أنا رأيتها بنفسى .

سأله (وليد) فى دهشة :

ـ من هى ؟!

مال الرجل نحوه ، وأجاب ، وكل ذرة فى كيانه وصوته ترتجف :

ـ النداهة .

وتراجع (وليد) فى دهشة بالغة ..

دهشة بلا حدود .

* * *

لنصف دقيقة كاملة تقريبًا ، ظلّ (وليد) يحدّق فـى وجـه الخفير (عوضين) الشـاحب المذعور ، غير مصدق ما سمعه منه ، قبل أن يقول فى حدة ، تحمل رنة غضب :

ـ أى قول أحمق هذا ؟! النداهة مجرد خرافة(*) اكتسب صوت (عوضين) شحوبًا أكثر ، وهو يقول ، فى لهجة حملت لمحة من الضراعة والاستسلام :

ـ ولكننى رأيته أمس .

تمـالك (وليد) أعصابـه ، وأمسـك كتفـى (عوضيـن) ، وهـو يتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً فى حزم :

ـ صف لى ما رأيته بالضبط .

ارتجف صوت (عوضين) بشدة ، وهو يقول :

ـ كانت كلاب الحراسة تنبح بشدة ، فخرجت لاستطلاع مـا يحدث ، وأطلقت أحد الكلاب ، لتعقب ما ينبحون عليه ، ولكن نباح الكلاب تحوّل إلى عواء مذعـور ، كمـا لـو أنهـا تكـاد تمـوت رعبًـا ، مـن شىء ما ، ودفعنى هذا إلى التحفز ببندقيتى ، وأنا أتبع ذلك الكلب الذى أطلقته ، ولكننى فوجئت به يعوى فى ألم وذعر ، فأسرعت إليه ، و ... ، و ...

ارتبك حديثه بشدة ، عند هـذه النقطـة ، وانخفض صوتـه إلـى ما يفوق الهمس ، وهو يكمل :

(*) النداهة : عفريت خرافى ، يجوب الحقول ، فى الروايات الريفية الشعبية ، وينادى اسم من يعبر به ، فإذا ما التفت إليه ، أصابه جنون ، لما تبقى له من العمر ، وهى خرافة شائعة ، فى الريف المصرى .

ـ وعندئذ رأيتها .

هتف به (وليد) ، وهو يهزه فى كتفيه فى انفعال :

ـ ماذا رأيت بالضبط ؟

لوَّح (عوضين) بيديه ، كما لو أنه عاجز عن وصف ما رآه ، ثم لم تلبث الكلمات أن خرجت من حلقـه مختنقـة عصبية ، وهو يجيب :

ـ فى البداية ، تصوَّرت أن الكلب قد علـق فـى شـجرة مـا ، ثـم انتبهت إلى أن تلك البقعة خالية من الأشجار ، ثم لاحظت فجأة أنها تمسك به ، وأنه يجاهد لتخليص نفسه منها .

وعلى الرغم من معرفته للجواب ، سأله (وليد) فى عصبية :

ـ ممن ؟!

أجابه (عوضين) فى سرعة :

ـ النداهة .. كانت تمسك به ، وتلتف حوله ، كما لو أنها نبـات متسلق حى ، ثم لم تلبث أن انقضت عليه ، و ... ، و ... والتهمته .

نطق الكلمة الأخيرة ، وجسده كله ينتفض فـى عنـف ، فحدَّق فيه (وليد) بمنتهى الدهشة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ ولماذا لم تطلق عليها النار ؟!

بدا وكأن الرجل نفسه يجهل الجواب تمامًا ، وهو يلـوِّح بكفيـه فى الهواء ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. المشهد كان مخيفًا ، حتـى إننـى رحت أتراجـع ، وأتراجع ، وعواء الكلب المسكين يخفت بين فكيهـا ، ثـم وجدت نفسى أجرى بكل قوتى مبتعدًا ، وهأنـذا .

كان من الواضح أن الرجل لا يكذب ، وأنه مقتنع فعلاً بأنـه قد رأى ما يضعه ، حتى ولو أخطأ تفسيره ..

ولكن روايته كانت عجيبة ..

ومفزعة ..

ومخيفة ..

ثم إن كلب الحراسة مفقود بـالفعل ، وهذا مـا ينبغـى أن يركز عليه كل اهتمامه ..

وبكل الحزم ، اعتدل (وليد) ، قائلاً :

ـ ابحثوا عن ذلك الكلب المفقود .. ابحثوا عنه ، أو حتـى عن بقاياه .. أريد أن أعرف ما الذى حدث هنا ليلة أمس بالضبط .

وعلى الرغم من خوفهم وتوترهـم ، انطلق رجالـه لتنفيذ الأمـر ، وراحوا يجوبون المزرعة كلها ، بحثًا عن بقايا كلـب الحراسـة ، فـى حين اتجه هو إلى المكان الوحيد ، الذى يشعر فيه بالراحة والهدوء ..

إلى ذلك الكشك الخشبى ، حيث نباتاته العجيبة ..

وكما يحدث دومًا ، استقبلته تلك النباتات بالتفاتة عجيبة ، كما لو أنها تشعر بقدومه ووجوده ، وجلس هو بينها صامتًا لبعض الوقت ، قبل أن يقول ، وكأنه يحدّث نفسه ..

أو يحدث نباتاته :

ـ ذلك الرجل خرف حتمًا .. ما يقوله غير قابل للتصديق .. النداهة خرافة .. مجرد خرافة ..

تمايلت كرات النبات الكبيرة فى نعومة ، وكأنها تستجيب لكلماته ، أو تحاول مواساته ، فتابع موليًا حديثه إليها :

ـ إنه يشعر بمسئوليته عن فقد كلب الحراسة ، وعقله الباطن يحاول تبرئته من هذا ، عبر قصة وهمية ، عن كائن خرافى .. لا .. لا يمكنى تصديق هذا .. لا يمكننى تصديق حرف واحد منه .

تمايلت كرات النبات مرة أخرى ، ومالت كلها نحوه ، فابتسم ابتسامة شاحبة ، وغمغم وهو ينهض :

ـ نعم .. أعلم أنكم تتعاطفون معى ، ولكن الأمر لا يقلقنى إلى هذا الحد .. اطمئنوا .. إنه كلب حراسة .. مجرد كلب حراسة .

استدار لينصرف من المكان ، وهو يلوّح بيده ، مضيفًا :

ـ أنتم أهم عندى من كل هذا الهراء ، الذى ..

قبل أن يتم عبارته ، ارتطمت قدمه بشىء ما ، كاد يفقد توازنه بسببه ، فالتفت ينظر إليه ، و ...

وتجمّدت مشاعره كلها دفعة واحدة ..

واتسعت عيناه ، حتى بلغتا أقصاهما ..

فذلك الذى تعثّرت قدمه به ، داخل كشك نباتاته الفريدة ، غير الأرضية ، كان كومة من العظام ..

عظام كلب ..

* * *

« لا يمكن أن يكون هذا منطقيًا يا (وليد) .. »

نطق الطبيب البيطرى العبارة بابتسامة كبيرة ، وهو يمسك فى يده عظمة من العظام ، التى عثر عليها (وليد) فى كوخه الخشبى الخاص ، ثم أعادها إلى سطح مكتبه ، مستطردًا :

ـ إنها بالفعل عظام كلب ، من نفس النوع ، الذى تستخدمه لحراسة مزرعتك ، إلا أنها ليست حديثة العهد كما تتصوّر .. إنها عظام كلب لقى مصرعه ، منذ عام على الأقل .

تراجع (وليد) فى مقعده ، وحمل صوته كل توتره ، وهو يقول :

ـ أأنت واثق من هذا ؟!

أومأ الطبيب البيطرى برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إلى حد كبير .. لو أنها عظام كلب مات حديثًا ، لحوت ولو بقايا مجهرية من اللحم والعضلات ، إلا أن هذه العظام نظيفة تمامًا ، كما لو أن كل ما يتصل بها قد ذاب منذ فترة طويلة ، أو التهمته الديدان أو بعض الحشرات أو القوارض .

سأله (وليد) فى اهتمام :

ـ هل من وسيلة لحسم الأمر تمامًا ؟!

تنهَّد الطبيب ، وسأله :

ـ ألا يمكنك أن تخبرنى ما الذى يدور فى رأسك بالضبط ؟! فأنت تبدو غامضًا وشديد العصبية الليلة .

تطلَّع إليه (وليد) بضع لحظات فى صمت ، ثم نهض فى مقعده ، وبدا شاردًا بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ لقد وجدت هذه العظام فى مكان ، لا يمكن أن يدخله سواى .

وصمت لحظة أخرى ، ثم التفت إلى الطبيب البيطرى ، مكملاً ، فى عصبية واضحة :

ـ مكان بنيته منذ أقل من ذلك العام ، الذى قدرت به عمر هذه العظام .

بدت الدهشة على الطبيب البيطرى ، وهو يتساءل :

ـ من أين أتت إذن ؟!

أشار (وليد) بيده ، فى عصبية أكثر ، وهو يقول :

ـ هذا هو السؤال .

ثم عاد إلى شروده ، مستطردًا :

ـ من أين أتت ؟!

تطلَّع إليه الطبيب البيطرى لحظات فى صمت ، قبل أن ينهض إليه ، ويضع يده على كتفه ، متسائلاً :

ـ ماذا يدور فى رأسك ؟!

جفل (وليد) بشدة ، مع لمسة الطبيب البيطرى ، الذى تراجع بحركة حادة ، وقال مرتبكًا :

ـ معذرة .. لم أقصد أن ..

قاطعه (وليد) فى عصبية :

ـ ألا تسمع هذا ؟!

سأله الطبيب البيطرى ، وهو يرهف سمعه :

ـ أسمع ماذا ؟!

ارتجف صوت (وليد) فى شدة ، وهو يجيب :

ـ الكلاب .. كلاب الحراسة فى مزرعتى تعوى .. بفزع .

ولم يفهم الطبيب البيطرى ما يمكن أن يعنيه هذا ..

لم يفهم أبدًا .

* * *

فى تلك المرة ، لم يختف أحد كلاب الحراسة ..

كانت كلها هناك ..

خائفة ..

مذعورة ..

منكمشة ..

كانت تتصرَّف على نحـو لا يمكن أن يتفق مع سمات نوعهـا ، الشهير بالقوة والشراسة والعنف ..

ولقد أصاب هذا كل عمال المزرعة بحالة من الفزع ، لا مثيل لهـا ؛ لأن ما يحدث أمر عجيب ، مناف تمامًا لطبيعة الأمور ..

والناس أعداء ما يجهلون ..

والمجهول هو مصدر كل مخاوف البشر ..

بلا استثناء ..

وكعادة أهل الريف ، عندما يحيط بهم أمر غامض أو مخيف ، فـى قلب الليل ، أشعل عمال المزرعـة بعض المشـاعل ، وراحوا يجوبون المكان على أضوائها المتراقصة ، بحثًا عن أى تفسير لما يحدث ..

وعلى الرغم من أن (وليد) لم يخبرهم قط بأمر العظام ، التـى عثر عليها فى كوخه الخشبى الخـاص ، إلا أنهم كـانوا يشـعرون جميعًا أن ما يحدث وثيق الصلة ، بما حدث من قبل ..

وبكل رعبهم وانفعالهم ، راحوا يتهامسون بتلك الخرافة ، التى وجدت صدى فى نفوسهم جميعًا ..

خرافة النداهة ..

وعندما وصل (وليد) إلى المزرعـة ، كـانت أعصـابهم جميعًا مشدودة ، على نحو لم يره من قبل قط ..

ولم يكن موقفه بأقل منهم توترًا ..

ولكن توتره كله هدأ كثيرًا ، عندما تيقن من أن كلاب الحراسة كلها سـليمة وكاملـة العدد ، فأسرع إلـى كـوخ النباتـات يفحصـه ووجد بابه مغلقًا من الخارج ، بذلك القفل المزدوج ، الذى وضعه عليه ، إلا أن هذا لم يمنعه من فتحه ، ودخول المكان ، و ...

وتمايلت كرات النباتات لرؤياه كالمعتـاد ، فتوقف مبهورًا مبهوتًـا ، وغمغم فى عصبية ، لم يستطع كتمانها :

ـ كيف خطرت ببالى فكرة حمقاء كهذه ؟!

رصدت عيناه فى سرعة ، كل جدران الكوخ ، بقوائمها الخشبية ، وزجاجها المانع للرؤية ، واطمئن قلبه إلى أنها جميعها سليمة ، ثم تنهَّد ، متمتمًا :

ـ لو أنك بشر ، لكنت أدين لك بالاعتذار .

خُيِّل إليه أنه قد سمع حفيفًا خافتًا ، يحمل ما يشبه الكلمات .. كلمات غير واضحة أو محدَّدة ..

ولكنه لم يتوقف كثيرًا عند خياله هذا ..

النباتات لا يمكن أن تصدر أصواتًا ..

صحيح أنها كائنات حية ، إلا أنها تمتلك سمات خاصة ، تختلف تمامًا عن سمات الكائنات الحية الأخرى ..

إنها لا تملك أحبالاً صوتية ، أو نسيجًا عصبيًا ، أو أية حواس تمتلكها الكائنات المتحركة ..

فهى لا تسمع ، ولا ترى ، ولا تتكلم ..

ربما لهذا ، اعتاد أن يتحدَّث إليها طوال الوقت ..

كانت بالنسبة إليه أكثر كاتم أسرار ، يمكن أن يطمئن إلى خباياه معه ..

كاتم أسرار له جذور ثابتة ، لا تسمح إليه بالحركة أو الانتقال .. فكيف راودته تلك الفكرة الحمقاء إذن ، ولو لجزء من الثانية ..

والواقع أن الفكرة لم تبد له حمقاء سخيفة ، بقدر ما بدت فى تلك اللحظة بالذات ، وهو يقف بين كرات النبات الهادئة ، التى تتمايل من حوله فى رقة ونعومة ..

فمع غرابة الوقائع ، وجهله التام بطبيعة البذور غير الأرضية ، التى زرعها فى كوخه السرى الخاص ، تصوَّر أنها هى المسئولة عن كل ما يحدث ..

تصوَّر أنها ، بوسيلة ما ، غادرت مستقرها ، وجابت مزرعته ، وهاجمت كلب حراسته ، و ...

والتهمته ..

خياله صوَّر له أنها قادرة على الحركة ، وشرهة مثل النباتات الاستوائية المفترسة ، التى تتغذى على الحشرات ، فى قلب الأحراش المتشابكة(*) ..

ولكن حتى تلك النباتات المفترسة ، لا تملك القدرة على الحركة ..

جذورها القوية تربطها بالتربة ..

(*) النباتات المفترسة : أو النباتات آكلة الحشرات ؛ هى نوع من النباتات ، التى تنمو فى تربة معدنية ، تفتقر إلى الأملاح ، خاصة النيتروجين ؛ لذا ففيها أعضاء خاصة ، يمكنها أن تقتنص الحشرات ، ثم تغمرها بسوائل هاضمة خاصة ، بحيث تحصل على كل ما تحويه أجسامها من أملاح مختلفة ، لتعويض النقص فى التربة .

تمامًا مثل كل النباتات ..

وهذا يعنى أن خياله كان شديد الحماقة والسخافة بالفعل ..

توقفت أفكاره عند هذه النقطة ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يغمغم ، وكأنه يتحدّث إلى أحد أصدقائه :

ـ أنا آسف .

نطقها ، ثم غادر الكوخ ، وأغلق ذلك القفل المزدوج فى إحكام ، ثم هتف بأحد رجاله :

ـ هل عثرتم على شىء ما ؟!

أجابه الرجل ، والتوتر يتقاطر ، من كل حرف من حروف كلماته :

ـ ليس بعد ..

التقط نفسًا عميقًا آخر ، وقال وقد تملك أعصابه عن ذى قبل :

ـ لست أظنكم ستجدون شيئًا .

رمقه الرجل بنظرة صامتة ، حملت شكًا بلا حدود ، قبل أن يغمغم فى خفوت :

ـ ربما يا (وليد) بك .. ربما .

تركه (وليد) ينصرف ، وربت على باب الكوخ ، ثم ابتعد عنه فى خطوات سريعة ، و ...

وفجأة ، تناهى ذلك الصوت إلى مسامعه ..

صوت شىء ما ، يزحف على التربة ، فى قوة وسرعة ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

وفى حذر شديد التوتر ، قبضت أصابعه على مقبض مسدسه المرخص ، الذى يحمله دومًا ، وتحرّك ليدور حول الكوخ ، بحثًا عن ذلك الشىء ، الذى أصدر مثل هذا الصوت ..

لم يكن هناك أى شىء ، عند الجدارين اليساريين للكوخ ، و ...

ولكن هناك ، عند الجدار الأيمن ، توقف (وليد) ، وسرتْ فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وهو يحدّق فى التربة ..

فهناك ، عند قاعدة الكوخ ، كان الأثر واضحًا للغاية ..

أثر جسم ما ، زحف حتى بلغ الجدار ..

جسم ضخم ، فى حجم ثعبان كبير ..

ثعبان قادر على ابتلاع كلب حراسة كامل ..

كان هذا أول ما جال بخاطره ، وهو يحدّق فى الأثر ، قبل أن يميل بمنتهى الحذر ، ليفحص التربة ، عند قاعدة الجدار ..

وعلى الرغم من أن آثار الزحف تنتهى هناك ، لم يعثر (وليد) على أية فجوات ، تسمح بعبور جسم بهذا الحجم ..

وزاد هذا من دهشته وحيرته وتوتره أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وبكل انفعاله ، راح جسده يرتجف ، وهو يحاول البحث عن أى تفسير ، يمكن أن يجعل ذلك المشهد منطقيًا ..

أى تفسير ..

وقبل أن ينطلق ذهنه ، للبحث عن تفسير ما ، انبعث من بعيد فجأة صوت سارينة سيارة شرطة قوية ..

وانتفض جسده فى عنف ..

السارينة تعنى أن الشرطة تهرع إلى القرية ؛ بسبب أمر طارئ مفاجئ ..

أمر يستحق التدخُل بهذه السرعة ..

أمر قد يكون ..

لم يستطع عقله حتى إكمال الفكرة ، وهو يعيد مسدسه إلى غمده ، ويبتعد بسرعة عن كوخ نباتاته ، وكأنما يخشى أن تأتى الشرطة إليه ، وتكشف سره الخطير ..

سر كوخ النباتات .. غير الأرضية ..

وبكل لهفته وقلقه ، أرسل أحد خفرائه لاستطلاع الأمر فى القرية ، ومعرفة سر قدوم الشرطة على هذا النحو ..

ولم تمض نصف الساعة ، حتى عاد إليه الخفير بوجه شاحب ، جعله يسأله فى لهفة :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه الخفير بصوت مرتجف :

ـ لقد فعلتها مرة أخرى .

امتقع وجه (وليد) وصوته ، وهو يقول :

ـ من التى فعلتها ؟ وما الذى فعلته ؟!

ارتجف صوت الخفير أكثر ، وهو يجيب ، بعينين ملؤهما الذعر :

ـ النداهة .. لقد ظهرت فى القرية ، واختطفت هذه المرة طفلاً .. طفلاً صغيرًا .

وسقط قلب (وليد) بين قدميه ..

بمنتهى العنف .

* * *

3ـ الرعب ..

منذ تم العثور على الهيكل العظمى لذلك الصغير ، بعد يومين من اختفائه الغامض ، سرت فى البلدة كلها حالة من الرعب لا مثيل لها ..

الحديث عن النداهة تناقلته الألسن ، ووجد آذانًا مصغية ، وتهامس به الكل خلف الأبواب المغلقة ، بعد أن خلت الشوارع الضيقة من المارة ، بعد غروب الشمس ..

لم يعد هناك من يسير فى الطرقات ، مع هبوط الظلام ، سوى الضابط (سامح) ورجاله ، الذين أصابهم الجنون ، وهم يبحثون فى استماتة عن ذلك القاتل الغامض الرهيب ، الذى قتل طفلاً صغيرًا ، دون شفقة أو رحمة ، وانتزع كل ذرة لحم من عظامه ، التى وجدوها بيضاء نظيفة ، على نحو غير طبيعى ..

وعندما تم إرسال تلك العظام إلى الطب الشرعى ، جاءت النتيجة بعد أسبوع واحد ، لتفجِّر المزيد من الدهشة والحيرة ..

مع ألف ألف سؤال ..

فالتقرير أكَّد أنه من المستحيل أن تكون العظام للصغير المختفى ، حيث إنها تبدو قديمة ، خالية من البقايا تمامًا ، كما لو أنها ظلَّت نهبًا لديدان الأرض لعام كامل !!

ثم إن نخاعها كان يحوى مادة عجيبة ..

مادة عضوية ، إلا أنها لا تشبه أية مادة عضوية معروفة ..

هذا لا يعنى بالنسبة إليه ، سوى تفسير واحد !..

نباتاته ..

النباتات التى خرجت من تلك البذور الفضائية ، مجهولة الهوية ..

كان ذلك الأسبوع ، الذى مرَّ عليه أشبه بدهر كامل ، بين اختفاء الطفل ووصول التقرير ، قد أصاب مظهره وأعماقه على نحو عجيب ..

لقد بدا محطمًا ، ذاهلاً ، زائغ العينين ، وأهمل هندامه وحلاقة لحيته تمامًا ، حتى بات أشبه بالمجذوبين ، أو المصابين بالهلاوس العقلية الشديدة ، و ...

« ما الذى تفعله بنفسك بالضبط ؟! »

ألقى (سامح) السؤال عليه فى حدة ، فرفع (وليد) عينيه الزائغتين إليه ، وهو يردِّد على نحو آلى :

ـ ما الذى فعلته بنفسى ؟!

صاح به (سامح) فى عصبية :

ـ لست مسئولاً عما أصاب ذلك الصغير ، فاطرح عن نفسك هذا البؤس ، الذى لم أعتده فيك ، حتى عندما لقى والدك مصرعه .. هيا .. اذهب لتستحم ، وتحلق لحيتك ، لتبدو كما اعتدتك دومًا .

ظل (وليد) ذاهلاً شاحبًا ، وهو يتمتم :

ـ سأفعل .. سأفعل .

مال (سامح) نحوه ، وقال فى صرامة :

ـ الآن ..

نظر إليه (وليد) فى شرود ، ثم نهض ، قائلاً :

ـ نعم .. الآن .

تابعه (سامح) ببصره فى قلق ، قبل أن يشـير إلـى أحـد رجاله ، ويهمس فى أذنه :

ـ لا أريدك أن تغفل عنه .. إنه ليـس طبيعيًا علـى الإطـلاق .. أخشى أن يؤذى نفسه ، على نحو أو آخر .

ولكن (وليد) لم يسمعه ..

لم يكن عقله حتى منشغلاً بما يمكن أن يقوله (سامح) أو يفعله ..

كل ما كان يقلقه ، هو ما يحدث فى البلدة ..

لقد أطاعه فى آليـة ، فاستحم ، وحلق لحيتـه ، وارتدى ثيابًا نظيفة ، ثم اتجه مباشرة إلى ذلك المكان ، الـذى كـان يشـعر فيـه قديمًا بالراحة ، والذى صار بالنسبة إليه أشبه بجحيم ..

جحيم من عالم آخر ..

فتـح رتـاج الكـوخ الخشبى فـى حـذر ، ودفـع بابـه بأصـابع مرتجفة ، ثم راح يلهث فى انفعال عجيب ، عندمـا تمـايلت تلـك الكرات الفضائية نحوه ، على نفس النسق المعتاد ..

كان حجمها قد تضـاعف ، خـلال ذلـك الأسبوع ، فبدت هائلـة عملاقـة ، حتى اقتربت من سقف الكـوخ ، مما أشـعره وسـطها بالضآلة ، وهو يتخذ مقعده المعتاد ، ويتطلع إليها بوجه شـاحب ، قبل أن يهمس ، فى صوت تجاوز شفتيه بالكاد :

ـ لماذا ؟!

بدا وكأن النباتات كلها قد اعتدلت ، وراحت تنصت إليه جيدًا ، فكرَّر بصوت أعلى ، حمل تعبيرًا عن غضبه وتوتره :

ـ لماذا تفعلون هذا ؟! لماذا ؟!

لم يحصل على جواب بالطبع ، فهبَ من مقعده ، وراح يلوِّح بذراعيه فى غضب شديد ، صائحًا :

ـ إننى أرعاكم ، وأمنحكم الدفء والغذاء ، وأخفى أمركم عن الجميع ، حتى لا تتبادلكم وتعبث الأيدى ، فلمـاذا تفعلـون بـى هذا ؟! لماذا ؟!

كان يهم بمواصلة صيحاته ، لولا أن سمع طرقًا قويًا مفاجئـا ، على باب الكوخ ، مع صوت خشن متوتر ، يتساءل :

ـ سيِّد (وليد) .. أأنت تجير ؟!

انتفـض جسـده فـى عنـف ، لسـماع ذلـك الصـوت الآدمـى المباغت ، والتفت إلى الباب ، صائحًا فى حدة :

ـ من أنت ؟!

تنحنح صاحب الصوت الخشن ، قبل أن يجيب :

ـ أنا المخبر الخاص لـ (سامح) بك ، لقد أمرنى بـ ..

قاطعه (وليد) صارخًا :

ـ لا شأن لك بى .. اذهب من هنا .. هل تسمعنى ؟! اذهب .

تردَّد المخبر لحظة ، ثم قال فى حسم :

ـ ولكن أوامر (سامح) بك ..

قاطعه (وليد) مرة أخرى ، فى ثورة شديدة :

ـ قلت اذهب ؟! هذه مزرعتى ، ولا أريدك هنا ..

اذهب .. اذهب .

انتبه فجأة إلى أن النباتات العملاقة قد مالت كلها نحو البـاب ، فى تحفـز واضـح ، وأن كـرة إحداهـا تبـدو كمـا لـو أنهـا تنفتـح ، فتوقف مبهوتًا ، وحدَّق فيها فى لهفة وفضول وخوف ..

ولكن تلك الكرة لم تلبث أن أغلقت فى هدوء ، مـع وقـع أقـدام المخبر وهو يبتعد ، وعادت النباتات كلها تعتدل ..

وتهدأ ..

وهنا خفق قلب (وليد) فى عنف أكثر وأكثر ، واتسعت عينـاه عن آخرهما ، وقد بدا له أنه قد شاهد رد فعل جديد ، لم يتصوَّره من قبل قط ..

ولم يكن بإمكانه أن يشاهده ، لولا ما حدث ..

وفى تلك اللحظة بالذات ، قفزت الفكرة إلى رأسه ..

فكرة مراقبة نباتاته طوال الوقت ..

وبينما يتطلَّع إلى النباتات العملاقة ، راحت الفكرة تختمر فـى رأسه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى تلك الليلة ، قضى ساعتين كاملتين فى حجرته ، يدوِّن كل ما يحتاج إليه ، للقيام بما عزم عليه ..

وبينما يفعل ، كان (سامح) يستمع إلـى المخبر فـى دهشـة ، قبل أن يعقد حاجبيه فى شدة ، مغمغمًا :

ـ يتحدّث إلى شخص ما ، داخل ذلك الكوخ ؟! يا لها من مفاجأة ؟!

حمل صوت المخبر الخشن كل جديته ، وهو يضيف :

ـ كان يسأل ذلك الشخص هناك ، لماذا فعل هذا ، على الرغم من أنه يرعاه ، ويخفيه عن الأعين .

اتسعت عينا (سامح) فى ارتياع ، وهو يقول :

ـ هل سمعت هذا بنفسك ؟!

أومأ المخبر برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ سمعته جيدًا يا سيّدى .

تراجع (سامح) فى مقعده ، وغرق لحظات فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى حزم ، شابته لمحة من التوتر :

ـ فليكن اتركنى وحدى ، وواصل مراقبته .

رفع المخبر يده بالتحية العسكرية ، قائلاً :

ـ أوامرك يا (سامح) بك .

هم بالانصراف ، فاستوقفه (سامح) ، قائلاً بكل الصرامة :

ـ وأريد معرفة ما يحدث فى ذلك الكوخ .. الليلة .

كرَّر المخبر بنفس الحزم والخشونة :

ـ الليلة يا (سامح) بك .

غادر الرجل مكتب (سامح) ، الذى بدا شديد الدهشة والتوتر ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، مغمغمًا فى حيرة :

ـ يخفى شخصًا ما ؟! ولكن من ؟! من ؟!

بينما يدور التساؤل فى ذهنه ، فى الثانية بعد منتصف الليل ، كان المخبر يستقل دراجة عادية إلى المزرعة ، حيث تسلَّل إليها فى خفة ، وتفادى الخفراء ، الذين منعهم الرعب من التجول فيها كالمعتاد ، واتجه مباشرة إلى ذلك الكوخ ..

ولدقيقة أو يزيد ، جلس إلى جواره صامتًا ؛ ليطمئن إلى أن أحدًا لم يلمحه ، ثم لم يلبث أن أخرج من جيبه أداة رفيعة ، راح يعالج بها رتاج باب الكوخ ، فى عنف وخشونة ..

كان رتاجًا قويًا ، إلا أن محاولة المخبر لم تلبث أن أفلحت ، وأمكنه أن يفتح باب الكوخ ، ثم يتسلَّل إليه فى خفة ، ويغلق الباب خلفه ..

فى البداية ، منعه الظلام من رؤية ما حوله ، إلا أنه كانت هناك رائحة نفَّاذة قوية ..

رائحة أشبه برائحة المستنقعات ..

ثم فجأة ، شعر المخبر بتلك الحركة ..

حركة أشبه بحفيف شيء ما ، يزحف على مقربة منه ..

وبكل توتر الدنيا ، أخرج من جيب معطفه مصباحًا يدويًـا بدائيًا ، وضغط زره ، وهو يوجّهه نحو مصدر الحركة ..

وهناك ، فى حجرته ، قفز المهندس (وليد) من فراشه ، مع صوت صرخة رهيبة ..

صرخة رعب وألم وذهول ، و ...

وموت .

* * *

عندما وصلت سيارة (سامح) إلى المزرعة ، كان كل الخفراء تقريبًا هنـاك ، يحيطون بجثـة المخبر ، الملقاة على مسافة مائـة متر من ذلك الكوخ الخشبى ..

وكانت وجوههم الشاحبة تعكـس حالـة الرعب والفزع ، التـى أصابتهم ليلتها ..

كما أن أضواء الفيلا كانت كلها مضاءة و(وليد) يجلس إلى جوار جثة المخبر ، التى تمـت تغطيهـا بأوراق الصحف ، كعادة المصريين ..

ولقد كان (سامح) شديد التوتر والغضب ، وهو يسأل (وليد) :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

بدا (وليد) شديد الشحوب ، وهو يهز رأسه نفيًا ، مجيبًا :

ـ لا أحد يدرى .. لقد أيقظتنا صرختـه من نومنا ، فهرعنا إلى هنا لنجده و ... و ...

كان من الواضح أنه يحاول قول شيء ما ، إلا أنه لم يلبـث أن استبدله بقوله العصبى :

ـ وهكذا وجدناه .

مال (سامح) نحوه ، يسأله :

ـ كيف وجدتموه ؟!

حدّق (وليد) فى وجهـه بعينين زائغتين ، وبدا وكأنـه يعجز عن نطق الجواب ، ثم لم يلبث أن همس فى ذعر واضح :

ـ هكذا .

انعقد حاجبا (سامح) ، وهو يحاول أن يفهم ما يعنيه هذا ، ثم لم يلبث أن مـال نحو جثـة المخبر ، ورفـع أوراق الصحف عن وجهه ، و ...

وانتفض جسده كله ، وهو يرتد فى عنف ..

فطوال عمله فـى الشـرطة ، وعلـى الرغم من معالجتـه لست حالات قتل على الأقل ، إلا أنه لم يـر ، أو يتصوّر أن يـرى ، فـى حياته كلها ، جثة حملت ملامحها كل هذا الرعب ..

لقد كانت عينا المخبر متسعتين عن آخرهما ، كما لو أنهما ستثبان من مقلتيهما ، وفمه مفغور عن آخره ، وسحنته كلها مقلوبة على نحو رهيب .. أما عنقه ، فقد حوى علامة زرقاء واضحة للغاية ..

علامة تعنى أنه قد تعرَّض للخنق ، على نحو عنيف ، بجسم ناعم متصل سميك ..

جسم لم يكتف بخنقه ، وإنما اعتصر عنقه اعتصارًا ..

وبكل انفعاله وتوتره ، أخفى (سامح) وجه المخبر مرة أخرى ، وهو يهتف :

ـ من فعل به هذا ؟!

كان وجه (وليد) يزداد شحوبًا ، وهو يختلس النظر إلى كوخه الخشبى ، فى حين تبادل الخفراء نظرة رعب واضحة ، جعلت (سامح) يستدير إلى الكوخ بنظرة حادة ، ثم يقول فى عصبية :

ـ ما الذى تخفيه هناك ؟!

وهنا ، انتفض جسد (وليد) ، واتسعت عيناه فى رعب ، وهو يرفعهما إليه ، هاتفًا :

ـ أخفيه ؟!

أمسك (سامح) كتفيه فى قوة وخشونة ، وهو يصيح به :

ـ أى قاتل تخفيه هناك ؟!

الرعب الذى ملأ وجه (وليد) وملامحه ، كان أشبه باعتراف صريح بالتورط فى الأمر ، فانعقد حاجبا (سامح) فى شدة ، وهبَّ واقفًا ، واتجه فى حزم نحو الكوخ ، ولكن (وليد) قفز يمسك ذراعه ، هاتفًا :

ـ ليس هذا من حقك .

جذب (سامح) ذراعه من يده فى حدة ، مكررًا فى غضب :

ـ من الذى تخفيه هناك ؟!

صرخ (وليد) :

ـ لست أخفى شيئًا .

تراجع الخفراء كلهم فى خوف ، وهم يشاهدون ويتابعون ذلك الصراع ، الذى لم يشاهدوا مثله من قبل ، بين صديقين قديمين ..

أما (سامح) ، فقد همّ بقول شىء ما ، لولا أن توقف فجأة ، وحدَّق فى شىء ما ، بمنتهى التوتر ..

ولأن (وليد) قد رأى ذلك الشىء أيضًا ، فقد امتقع وجهه على نحو عجيب ، وتلاحقت أنفاسه بشدة ..

وبحركة عصبية ، انحنى (سامح) يفحص ذلك الأثر على الأرض ..

أثر يدل على أن شيئًا ما قد سحب جثة المخبر ، من الكوخ ، إلى حيث تم العثور عليه ..

وبحركة غاضبة ثائرة ، سحب (سامح) مسدسه ، ورمق (وليد) بنظرة حادة ، ثم اندفع نحو الكوخ ..

وبعد وهلة من الجمود ، لحق به (وليد) ، وهو يهتف :

ـ أرجوك يا (سامح) .. أرجوك .

كرَّر (سامح) فى ثورة :

ـ أخبرنى ما الذى تخفيه هناك ، قبل أن أكشفه بنفسى .

ارتجف صوت (وليد) ، وهو يقول :

ـ إنها نباتات .. آآ .. نباتات استوائية نادرة .

بلغ (سامح) الكوخ ، عند هذه النقطة ، ولحق به (وليد) ، الذى انتفض قلبه بين ضلوعه فى عنف ، عندما لاحظ الرتاج المكسور ، وانطلقت من حلقه شهقة ، امتزجت بصوت قدم (سامح) ، وهى تضرب باب الكوخ ، وتفتحه ، و ...

ولم تتجاوب النباتات العملاقة هذه المرة ، كما اعتادت أن تفعل مع (وليد) ..

(سامح) هو الذى تجاوب ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فى دهشة بالغة ، وهو يرفعهما إلى سقف الكوخ ، حيث امتدت تلك النباتات ..

وبكل ذهوله ، غمغم :

ـ نباتات استوائية ؟!

بدا (وليد) منهارًا ، وهو يقول :

ـ ألا تبدو لك كذلك ؟!

لم يدر (سامح) ما ينبغى أن يقول ؛ فهو لم يكن أبدًا خبيرًا بالنباتات ، إلا أنه حتمًا لم ير فى حياته كلها ، أو حتى فى برامج التلفاز ، أية نباتات يمكن أن تشبهها ، هيئة أو حجمًا ..

ولدقيقة كاملة ، ظل يحدق فى تلك النباتات العجيبة ، ورائحة المستنقعات تملأ أنفه ..

لم تكن تلك الرائحة المعتادة للمستنقعات ، إلا أنها رائحة عضوية قوية ، أدهشه أنها لم تتسرَّب إلى المنطقة كلها ..

وفى توتر ، حاول (سامح) أن يخترق تلك النباتات المتشابكة ببصره ، إلا أنه أدرك ، منذ اللحظة الأولى ، أنه من المستحيل أن يبقى شخص ما وسط هذه الأدغال ساعة واحدة !!

من المستحيل تمامًا !!

ومرة أخرى ، غمغم ذاهلاً :

ـ نباتات استوائية ؟!

ثم تراجع فى حركة سريعة ، وغادر الكـوخ ، وكأنمـا لا يشـعر بداخله بأدنى قدر من الارتياح ..

أما (وليد) ، فقد بقى فى الكـوخ لحظـات ، يحدّق فـى نباتاتـه العملاقة ، التى ما أن غادر (سامح) الحجرة ، حتى مالت نحـوه فى نعومة ..

إلا أنه ، وفى هـذه المرة ، شـعر بالنفـور والتوتر الشديد ، مع ميلها الناعم هذا ..

وفى حركة حادة ، وثـب خـارج المكـان ، وأغلـق بابـه خلفـه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ يبدو أننا نحتاج إلى رتاج جديد .

لم ينبس (سامح) ببنت شفة ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه ، أو فى حاسته البوليسية المكتسـبة ، كـان يؤكّد أن سر مصـرع مخـبره يكمن هنا ..

فى قلب ذلك الكوخ ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد ابتعد بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ سأرسل رجال الطب الشرعى والمعمل الجنائى مع سيارة لحمـل جثة الخفير .

لاحظ ، وهو يبتعد ، أن (وليد) يتعمّد السير بأسلوب خاص ، بحيث يمحو بقدميه آثـار جر المخبر ، من الكوخ إلـى حيـث وجوده ، إلا أنه لم يعلّق ، أو يحـاول أن يمنعـه ، وكأنمـا يرغب بدوره فى أن يبتعد بالتحقيقات عن ذلك الكوخ المخيف ..

وعندمـا انصرف (سـامح) بسـيارته ، كـانت الشـمس تشـرق بالفعل ، من خلف الفيلا ..

وكان (وليد) أكثر إصرارًا ، على تنفيذ خطته ..

وعلى الرغم من وصول رجـال المعمل الجنائى والطب الشرعى ، فقد اسـتدعى نجـارًا ؛ لتغيير رتـاج بـاب الكـوخ ، واسـتخدم هـذه المرة رتاجًا أكثر قوة وتعقيدًا ، ثم اسـتقلّ سـيارته ، وانطلـق بهـا إلى المدينة القريبة ..

لم يكن ما يطلبه ميسرًا ، فى المدينة الصغيرة ، فواصل رحلته إلى (القاهرة) ، حيث ابتـاع كل متطلباته ، وعاد إلى مزرعته ، مع مغيب الشمس ..

كـان رجـال المعمـل الجنـائى والطـب الشـرعى قـد انتهـوا مـن عملهم ، وحملوا جثة المخبر خارج المزرعة ، وانتشر الخبر فـى البلدة كلها ، وبدأ الخفراء يتهامسون حول ترك العمل بالمزرعة ..

ولكن (وليد) لم يبال بكل هذا ..

لقد اتجه فور عودته إلى كوخه الخشبى ، وانهمك فى عمل متصل ، حتى الثالثة صباحًا ، وبعدها رآه بعض الخفراء يمد أسلاكًا طويلة ، من الكوخ إلى الفيلا ، التى لم يستقر فيها سوى من انبلاج فجر اليوم التالى ..

أما (وليد) فلم يكد ينتهى من توصيل آلات المراقبة فى الكوخ ، بالتلفاز الكبير فى حجرته ، حتى شعر بإرهاق ما بعده إرهاق ، فغمغم ، وهو يتطلع إلى الصورة ، على شاشة تلفازه الكبير :

ـ الآن لا يمكنكم أن تغيبوا عن نظرى لحظة واحدة .

قالها ، وتثاءب فى تهالك ، ثم ألقى نفسه على فراشه ، وأسبل جفنيه ، مضيفًا :

ـ اعتبارًا من الغد .

نطقها ، وغلبه النوم ، فغرق فى سبات عميق ..

سبات منعه من متابعة ما نقلته شاشة تلفازه الكبير ..

فما يحدث فى كوخه الخشبى كان عجيبًا ..

ومخيفًا ..

إلى أقصى حد .

* * *

لليوم الثانى على التوالى ، لم تسجل أجهزة (وليد) أية أحداث مريبة ، داخل كوخه الخشبى الخاص ، الذى استبدل رتاجه المكسور بآخر جديد ، أكثر قوة ومتانة ، وأحاط قاعدته بإطار من الأسمنت المسلح القوى ؛ لمنع أى شىء من الخروج ، مهما بلغت قوته ..

وفى الوقت ذاته ، ساد الهدوء البلدة ، إلى حد ما ..

صحيح أن حالة الرعب المبهم ظلت سائدة ، والكل يتهامس ، فى مجالسه الخاصة ، حول تلك الأحداث المخيفة ، التى لم تبرد نيرانها بعد ، إلا أن غياب أية وقائع جديدة صنع حالة من السكون النسبى ..

(وليد) نفسه بدأ يهدأ ، إلى حد كبير ، ويتساءل عما إذا كان مخطئًا فى تصوراته ، بشأن نباتاته الفضائية ، وهو يتابع نموها البطىء الهادئ ، على شاشة ذلك التلفاز الكبير ، فى حجرة نومه ، ويسجل كل هذا على شرائط فيديو طويلة المدى ، يستبدلها بنفسه كل ست ساعات ..

والواقع أن النفس البشرية عجيبة الشأن ، فى كل ما يتعلَّق بالخوف ؛ إذ أنها تحيا فيه مرتجفة ، وهى تتمنى زواله ، فما أن تلوح لها لمحة توحى بأنه فى سبيله إلى الزوال ، حتى تتشبَّث بها ، وتتعلَّق بأهدابها ، وتحاول إقناع مخاوفها بأن كل شىء قد مضى ، حتى تهدأ ، وتستعيد مسارها العادى ..

وهذا ما فعله (وليد) ، دون أن يدرى ..

تناسى الأمر ، وتجاهله ، وانغمس فى عملـه بمزرعتـه ؛ حتـى يلقى كل هذا خلف ظهره ..

وفـى اليـوم الثـالث ، بـدأ يتجـاهل تغيـير الأشـرطة وتجديدهـا ، ويتكاسل عن تسجيل ما يدور داخل الكوخ ، بل إنه لم يعد يتـابع شاشة تلفازه الكبير إلا لماما ..

ورويدًا رويدًا ، راح خفـراء المزرعـة أيضًـا يتناسون الأمـر ، أو يحاولون تجاهله ، وهـم يمارسون أعمـالهم المعتـادة ، وإن ظلـوا يتحاشون مجرد الاقتراب من ذلـك الكوخ ، إلا للضرورة القصـوى ، وبأقدام مرتجفة مترددّة ..

وفـى اليـوم الرابـع ، اسـتيقظ (وليـد) منتعشًـا ، علـى غـير العـادة ، وفتـح نـافذة حجرتـه ، فـى الطـابق الثـانى مـن فيلتـه ، واستنشق الهواء النقى ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، مغمغمًا :

ـ يا له من صباح جميل !

لم يكد يتم عبارته ، حتى لمع ذلك الشىء ، على سقف كوخـه الخشبى .. شىء أشبه بحيوان نافق ..

أو بقايا حيوان نافق ..

كومة مـن العظـام ، وبقايـا اللحـم والـدم ، مكوّمـة علـى سطح الكوخ ، ويحيط بها شىء ما ..

شىء أشبه بنبات ضخم عملاق ..

وتجمّدت ابتسامته علـى وجهـه ، وارتجفت شفتاه علـى نحـو عجيب ، واتسعت عيناه حتى كادتا تقفزان من محجريهما ، و ...

وفجأة ، امتدّ بصره إلى ما خلف سطح الكوخ ..

وانتفض جسده بمنتهى العنف ..

كـانت سيارة ضـابط المبـاحث ، وصديقـه العزيز (سـامح) ، تدخل حدود مزرعته ، وتتجه نحو الفيلا مباشرة ..

وفى هلع ، خشى (وليد) أن يرى (سـامح) مـا رآه هو ، فأسرع يغلق النافذة ، ثم هرع إلى أسفل ، وهو يغمغم بكل توتر الدنيا :

ـ هذا ما يحدث دومًا .. المصائب لا تأتى فرادًا .

كان يسرع لاستقبال (سامح) أمام الفيـلا ، خشية أن يصعد إلـى حجرته كما اعتاد ، فيلمح ذلك الشىء ، الذى لم يتبينه هو نفسه جيدًا ..

وفى نفس اللحظة ، التى أوقف فيهـا (سـامح) سـيارته أمـام باب الفيلا ، كان هو يندفع خارجها ، هاتفًا :

ـ ما هذه الزيارة المفاجئة اللطيفة ؟!

أراد أن تأتى عبارته مرحة مرحبة ، إلا أنها خرجت ، على الرغـم منه ، عصبية مضطربة ، فالتقى حاجبا (سـامح) ، وهو يخـرج من سيارته ، قائلاً فى صرامة :

ـ ماذا يحدث هنا بالضبط ؟!

وعلى الرغم منه أيضًا ، امتقع وجه (وليد) ، وهو يتساءل ، بصوت أكثر شحوبًا منه :

ـ وما الذى يحدث هنا ؟!

هتف (سامح) ، وهو يغلق باب سيارته فى عنف :

ـ أخبرنى أنت ..

ثم لوَّح بمظروف كبير ، أمام وجه (وليد) ، مستطردًا فى حدة :

ـ هذا هو تقرير الطب الشرعى ، الخاص بمصرع ذلك المخبر ، الذى لقى حتفه فى مزرعتك .

تمتم (وليد) ، وهو يزداد شحوبًا :

ـ تقرير الطب الشرعى ؟!

صاح به (سامح) فى غضب :

ـ نعم يا (وليد) .. الرجل مات مختنقًا .. شىء ما اعتصر عنقه ، بعد أن أصابه برعب هائل .. شىء لزج رطب ، يفرز مادة ، لم يمكن تمييزها ، ولكنها تركت آثارًا واضحة على عنقه .

ثم استدار ببصره إلى ذلك الكوخ ، مضيفًا فى غضب ومقت :

ـ شىء أشبه بغصن نبات ما .

انتفض جسد (وليد) فى عنف ، وهو يهتف :

ـ نبات ؟!

بدا وكأن (سامح) يهم بالانقضاض عليه ، وهو يقول فى شراسة :

ـ نعم .. نبات .. نبات غير معروف .. نبات مثل تلك التى تحتفظ بها فى كوخك .

قالها ، واندفع نحو الكوخ فى حدة ، فاعترض (وليد) طريقه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أية أفكار حمقاء هذه ؟!

صاح (سامح) فى حدة :

ـ ما الذى تحاول حمايته بالضبط ؟!

هتف (وليد) ، بلهجة أقرب إلى الانهيار :

ـ أنت لا تفهم شيئًا .

صاح (سامح) :

ـ حاول أن تفهمنى إذن .

اضطربت نظرات (وليد) ، وهو ينقلها بين (سامح) والكوخ ، قبل أن يقول فى يأس :

ـ لن تفهم .

صرخ فيه (سامح) ، وهو يزيحه ؛ ليواصل اندفاعه نحو الكوخ :

ـ جربنى .

حاول (وليد) أن يتشبث به ، إلا أن (سامح) دفعه فى عنف هذه المرة ، وهو يصرخ مكررًا :

ـ ما الذى تحاول أن تخفيه .. أخبرنى ..

صاح (وليد) ، فى محاولة يائسة أخيرة :

ـ ليس هذا من حقك .

سحب (سامح) مسدسه ، وهو يقول فى حدة :

ـ يمكنك أن تتقدَّم بشكوى .

قالها ، وهو يصوِّب مسدسه إلى رتاج باب الكوخ الجديد ، ويجذب إبرته فى تحفز ، يوحى بأنه لا شىء فى الوجود يمكن أن يمنعه ، مما قرَّر أن يقدم عليه ، و ..

وفى داخل الكوخ ، راحت تلك النباتات العملاقة تتمايل فى عنف ..

وغضب ..

وتحد ..

وقبل أن يضغط (سامح) زناد مسدسه ، لينسف باب الكوخ الخشبى ، سقط ذلك الشىء من أعلى فى عنف ..

بقايا بقرة كاملة ، تحوَّل ثلاثة أرباعها السفلية إلى هيكل عظمى نظيف تمامًا ، فى حين تبقَّى الربع العلوى مع الرأس ، وقد تآكلا على نحو عجيب ، وكأنما يلتهمها حمض قوى ..

سقطت بحركة مباغتة ، بين (سامح) و(وليد) ، فاستدار إليها الأوَّل بحركة غريزية ، وأطلق عليها رصاصات مسدسه ..

ثلاث رصاصات متتالية ، دوت فى المزرعة كلها ، وبلغ صداها البلدة نفسها ، فأثار موجة من التوتر ، ودفع كل الخفراء إلى أن يهرعوا إلى المكان فى عصبية ، وهم يشهرون أسلحتهم ..

(وليد) وحده رفع عينيه إلى أعلى ؛ فور سقوط تلك البقايا ، ولمح فرع النبات القوى ، الذى انسحب إلى السقف ، فانتفض جسده فى عنف ، وسقط قلبه بين قدميه ..

أما (سامح) ، فقد ظل ممسكًا بمسدسه ، الذى يتصاعد الدخان من فوهته ، وهو يحدِّق فى تلك البقايا ، فى مزيج مدهش من الغضب والذهول والخوف ، قبل أن يرفع عينيه إلى أعلى بحركة حادة ، ثم يخفضهما بحركة أكثر حدة إلى (وليد) ، الذى لم يمكنه مواجهته ، مخفض عينيه فى مرارة ، وهو يقول بصوت شديد الخفوت :

ـ سأ ... سأشرح لك كل شىء .

كـان الخفـراء قـد التقـوا حولهمـا ، واسـتعادوا كـل ذعرهـم وخوفهم ، وهم يحدقون فى تلك البقـايا ، التى بدت عجيبة بشـعة الخلقة ، عندما قال (سامح) ، فى صوت شديد الارتجاف :

ـ أتعشَّم أن يكون الأمر قابلاً للشرح .

غمغم (وليد) :

ـ وأنا أيضًا .

ظلّ (سامح) يحدّق فيه لحظة ، قبل أن يتمالك نفسـه ، ويعيد مسدسه إلى غمده ، ويصيح بالخفراء :

ـ هل ستواصلون التحديق هكذا .. هيا .. احملـوا هذا الشـىء بعيدًا ، وعودوا إلى عملكم .

بدا التردُّد والقلق واضحين فى أعينهم ، وكلهم يخشون مجرد لمس تلك البقايا ، وهمس أحدهم :

ـ أهى بقرة (حمدان) ، التى يبحث عنها منذ مساء أمس ؟!

بلغ الهمس مسـامع (سـامح) ، إلا أنـه تجاهلـه تمامًـا ، وهـو يدفع (وليد) أمامه نحو الفيلا ، قائلاً :

ـ هيا .. إننى متشوق لسماع ما لديك .

لم ينتبه أحدهما ، أو أحد من الخفراء ، إلى ذلك الفرع النبـاتى

القوى ، الذى زحف على سقف الكوخ ، ثم امتدّ منـه إلـى شـجرة قريبة ، ثم هبط عبر جذعها ، ليزحف بين الأعشـاب ، حتـى بلـغ الفيلا ، قبل حتى أن يبلغها (سامح) و(وليد) ..

وكـان مـن الواضـح أن الأمـور سـتتطوَّر أكثر ، فـى السـاعات القليلة التالية ..

ستتطوَّر إلى حد مخيف ..

للغاية .

* * *

4ـ آخـــرون ..

« إنها نباتات من عالم آخر .. »

حدَّق (سامح) فى وجه (وليد) فى ذهول ، عندما نطق عبارته هذه ، ثم تراجع فى مقعده فى بطء ، وانعقد حاجباه ، وهو يتمتم :

ـ (وليد) .. أأنت بكامل وعيك ؟

هزَّ (وليد) رأسه فى توتر ، قائلاً :

ـ أخبرتك أنك لن تستطيع استيعاب الأمر .

حدَّق (سامح) فى وجهه مرة أخرى ، محاولاً التيقن من أنه جاد وعاقل ، ثم أطلق من أعماق صدره زفرة ، متمتمًا :

ـ إما أنك قد أصبت بلوثة عقلية ، لا شفاء منها ، أو أنك مؤمن تمامًا بما تقول .

عضَّ (وليد) شفته السفلى ، مغمغمًا :

ـ لو أنك مررت بما عانيت منه أنا ، لأصبحت مؤمنًا بالأمر مثلى .

قالها ، والتقط نفسًا عميقًا ، ثم راح يروى له الأمر كله ..

بكل وقائعه ..

وكل تفاصيله ..

وبكل الذهول ، ظلَّ (سامح) يستمع إليه ، فى صمت تام ، حتى انتهى من روايته ، وغمغم :

ـ ولست أدرى الآن ما أفعله .

قال (سامح) فى حدة وغضب :

ـ لست تدرى ؟!

ثم انتفض واقفًا ، وهو يضيف :

ـ لقد ارتكبت كل أخطاء الدنيا ، من أجل تلك البذور يا رجل .. أخفيت الأمر منذ البداية ، وتركتنا نبحث فى يأس عن أسباب حريق مجهول ، ثم ساعدت بذورًا مجهولة ، على النمو فى عالمنا ، دون أدنى شعور بالمسئولية ، وبما يمكن أن يسفر عنه هذا .. ألم يخطر ببالك أن تحوى تلك البذور مرضًا نادرًا مثلاً ، يمكن أن يقضى على الثروة الزراعية ، ليس فى (مصر) وحدها ، ولكن فى العالم أجمع ؟!

غمغم (وليد) ، فى انهيار مرير :

ـ لم يخطر هذا ببالى .

صاح (سامح) فى غضب :

ـ ليس هذا وحده .. أمور كثيرة أخرى لم تخطر ببالك .. هناك سلطات مسئولة ، كان ينبغى إبلاغها بأمر خارق للمألوف كهذا .. سلطات قادرة على التعامل مع الأمر ، عبر نظام آمن دقيق .. سلطات لا يمكن أن تقدم على زراعة بذور فضائية مجهولة ، إلا تحت ظروف مشدّدة ، وبإشراف فريق من العلماء ، و ...

قاطعه (وليد) فى عصبية :

ـ وهل تعتقد أنه باستطاعة سلطاتنا أن تفعل هذا ؟! أنت ضابط مباحث ، فهل ترى أنهم يتبعون الإجراءات السليمة ، بشأن أى أمر كان ؟! ألا يغرق كل شىء فى بحر الإهمال والاستهتار واللا مبالاة ؟! هل تعرف ما الذى كان سيحدث ، لو أننى منحتهم ذلك الوعاء ؟! كان سيبقى مغلقًا إلى الأبد ، وربما اتهمنى بعضهم بالخلل النفسى ، لو أشرت إلى أن مصدره من خارج الأرض .. الصحف نفسها كانت ستسخر منى ، ولن يستمع إلىَّ أحد ، وسيفقد العلم فرصة ذهبية نادرة ، لمعرفة أمر ما عن الآخرين .. أقصد عن مخلوقات العوالم الأخرى .

قال (سامح) فى حدة :

ـ وماذا فعلت أنت أيها العبقرى ؟! زرعت بذورًا فضائية مجهولة ، فى تربة الأرض ، لتنبت نباتات مفترسة ، لا ندرى عنها شيئًا ؟! ماذا

لو أن حبوب لقاح فضائية منها قد حملها الهواء إلى نباتاتنا ؟! هل يمكن أن ينشأ فى هذا جيل كامل من خضراوات وفواكه مفترسة ؟! هل ستنقلب الآية ، فتلتهمنا مزروعاتنا ، بدلاً من أن نلتهمها نحن .

حاول (وليد) أن يعترض ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ لا يوجد دليل واحد على ..

قاطعه (سامح) فى ثورة :

ـ دليل ؟! لا يوجد دليل ؟! كيف تسمى ما حدث حتى الآن إذن ؟! كيف تجد التهامها لذلك الكلب ، وللطفل الصغير ، وقتلها للمخبر ؟! بل كيف تفسّر تلك البقايا ، التى سقطت علينا من سقف كوخك ؟! كيف ترى كل هذا ؟!

تمتم (وليد) :

ـ إنها مجرد نباتات .

سحب (سامح) مسدسه ، وهو يقول :

ـ بل هى قاتل .. قاتل مفترس .

قالها ، ثم رفع سمّاعة التليفون المجاور له ، وهو يطلب رقمًا فى عصبية ، مضيفًا :

ـ قاتل ، لابد من اتخاذ كافة الإجراءات لمواجهته .

سأله (وليد) مضطربًا :

ـ ماذا ستفعل بالضبط ؟!

أجابه (سامح) فى صرامة وحزم :

ـ ما ينبغى .

انكمش (وليد) فى مقعده ، واتسعت عيناه فى ارتياع عجيب ، فى حين أمسك (سامح) سمّاعة الهاتف فى حزم ، وهو يقول لمحدثه عبرها :

ـ (إسماعيل) .. اسمعنى جيدًا .. أريد عشرين لترًا من البنزين وثلاثة رجال أشداء ، فى مزرعة المهندس (وليد) .. كلا .. أريد كل هذا فورًا .. لا تضيع لحظة واحدة .

اتسعت عينا (وليد) عن آخرهما ، وهتف ، عندما أنهى (سامح) المحادثة :

ـ ماذا ستفعل ؟!

أجابه (سامح) فى صرامة :

ـ سأعدم القاتل .

قفز (وليد) من مقعده ، صارخًا :

ـ ليس هذا من حقك .

صاح به (سامح) :

ـ كيف تقول هذا ؟! كيف تجرؤ على قوله ؟! بذورك اللعينة تعبث فى الأرض فسادًا ، وتقتل كل كائن حى لتتغذى به ، دون أن تفرق بين بشرى أو حيوان منزل .. ماذا ستفعل ، لو أنها انتشرت فى عالمنا ، من خلال كوخك ؟! هل سنعانى من عدو جديد ، قادم من مكان ما ، من أعماق الفضاء ، نجهل ماهيته ، أو كيفية مقاومته ؟

هتف (وليد) :

ـ إصدار الأحكام وتنفيذها ليس من حقك .. أنت ضابط مباحث .. جزء من السلطة التنفيذية .. لست مشرّعًا أو قاضيًا .. كل ما تملكه هو إبلاغ السلطات ، لتتخذ قرارها بشأن النباتات ، أما أن تعدمها ، فهذا ليس ..

قاطعه (سامح) فى حدة :

ـ هل جننت ، أم أن تلك البذور قد أصابتك بخلل عقلى دائم ؟! لو أننى أبلغت السلطات الآن ، لتورطت أنت فى الأمر ، ولألقوا القبض عليك فورًا ، بتهمة المساعدة فى جريمة ، وإخفاء مجرم .

هتف (وليد) :

ـ لن يبلغ تفكيرهم هذه الدرجة من الرقى .

صاح (سامح) :

ـ أعلم أننا لسنا داخل فيلم من أفلام الخيال العلمى ، ولكن المسئولين فى عالم الواقع ليسوا بالسذاجة والغباء اللذين تفترضهما .. ربما يكون من الصعب استيعاب الأمر ، إلا أن النباتات موجودة ، وأى عالم نبات يمكنه إثبات أنها غير أرضية ، وأبسط ما سيتم اتهامك به ، هو إخفاء الأدلة ، وتضليل السلطات .

ثم اندفع خارج الفيلا ، مضيفًا :

ـ إننى أحاول حمايتك أيها الأحمق .

عدا (وليد) خلفه ، حتى ذلك الكوخ الخشبى ، وهو يقول :

ـ أرجوك يا (سامح) .. لا تتسرع .. إننى مستعد لتحمل الاتهامات ، ولكن من الخطأ أن نفنى نباتًا كهذا ، دون أن نبحث وسائل الاستفادة منه .. ماذا لو أنه يحوى مادة شافية من الأمراض السرطانية مثلاً ؟

هتف (سامح) فى غضب ، وهو يصوّب مسدسه مرة أخرى ، إلى رتاج الباب ، وينظر إلى بقايا البقرة ، التى لم يرفعها الخفراء من مكانها ، وإنما اكتفوا بتغطيتها بأوراق الصحف :

ـ مقابل ماذا .. التهام البشر ؟!

هتف (وليد) فى انهيار يائس :

ـ أرجوك يا (سامح) .

تجاهله (سامح) تمامًا ، وهو يجذب إبرة مسدسه ، و ...

وفجأة ، هبطت تلك الأفرع النباتية من فوق الكوخ ..

هبطت بحركة سريعة ، ليلتف أحدها حول معصم (سامح) ، فى حين التفت الأفرع الأخرى على وسطه وذراعيه ، و ...

وعنقه ..

وتراجع (وليد) بكل رعب الدنيا ..

لقد بدأت النباتات هجومها الصريح ..

وبدأت حربها .

* * *

لساعة أو يزيد ، انكمش (وليد) فى فراشه الكبير ، عاجزًا عن السيطرة على تلك الارتجافة ، التى شملت جسده كله ، من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ..

وفى إصرار عجيب ، ظلّ ذلك المشهد الرهيب محفورًا فى ذهنه ، يأبى أن يفارق رأسه ، ولو لحظة واحدة ..

مشهد تلك الأفرع الوحشية ، وهى تكمم (سامح) وتكبله ، ثم تجذبه إلى سطح ذلك الكوخ الخشبى فى قوة ..

(سامح) ، صديق صباه وحياته ، ورفيقه الوحيد فى البلدة كلها ، رأى تلك النباتات الفضائية تقتنصه ، وهو عاجز عن إنقاذه ، أو مد يد المساعدة إليه ..

والواقع أنه قد حاول ..

رأى تلك الأفرع الوحشية تنتزع منه صديقه ، فاندفع إلى باب الكوخ ، وحاول أن يفتحه ، وأن يدخل لإنقاذ (سامح) ..

ولكن الباب لم يستجب ..

كان هناك ما يضغط الباب من الداخل فى قوة ، تفوق كل ما يمكنه من دفع وبأس ..

ولقد أصابه الذعر ، ولكنه حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنه لم يستطع ..

كان بإمكانه أن يصرخ ..

أن يستنجد بخفراء المزرعة ..

أو بأى شخص من البلدة ..

إلا أنه لم يفعل ..

شىء ما ، منعه من أن يفعل ..

ربما هو خوفه من تلك النباتات القاتلة ، أو شعوره بأنه شارك فى ارتكاب الجريمة ..

زراعته لهذه النباتات ، كان بداية ما حدث ..

بداية الرعب ..

كل الرعب ..

إنه لا يدرى حتى مصير (سامح) ..

فما أن عجز عن انتزاعه ، من بين تلك المتوحشات ، حتى أصابه رعب ما بعده رعب ، فانطلق يعدو ، عائدًا إلى حجرته ، حيث انكمش فى فراشه يرتجف ..

ويرتجف ..

ويرتجف ..

ثم فجأة ، تذكّر آلات المراقبة ، التى زرعها فى الكوخ الخشبى ..

ومع تذكرها ، وثب يضغط زر تشغيل التلفاز الكبير ، الذى يتصل بأجهزة وكاميرات المراقبة ، و ...

وأضيئت الشاشة ..

وانتفض جسده بعنف ..

بمنتهى منتهى العنف ..

فهناك ، على الشاشة الكبيرة ، نقلت له كاميرا المراقبة وجه (سامح) ..

كان يملأ الشاشة كلها ، كما لو أنه قريب للغاية من موضع العدسة ، على الرغم من وجودها على ارتفاع كبير ، بالقرب من السقف ..

ولكن وجهه كان يختلف ..

صحيح أن عينيه كانتا تحدقان فى العدسة مباشرة ، إلا أنهما كانتا جامدتين ثابتتين ، فاقدتين للبريق والحيوية ، و ...

والحياة ..

ومرة أخرى ، انتفض جسد (وليد) ..

انتفض أعنف من انتفاضته السابقة ، مرتين على الأقل ..

وبأصابع مرتعدة مذعورة ، ضغط أزرار جهاز التحكُّم عن بُعد ، ليزيد من اتساع زاوية الرؤية ..

واتسعت الزاوية ..

وبدت الصورة أكثر وضوحًا ..

وأكثر تفاصيلاً ..

وصرخ (وليد) ..

صرخ بكل رعبه ، وهو يثب من فراشه ، ويلتصق بالجدار ، ويشهق هاتفًا فى انهيار :

- لا .. ليس (سامح) .. ليس (سامح) ..

فالصورة التى نقلتها آلة المراقبة ، من تلك الزاوية المتسعة ، كانت مثالاً للبشاعة ، بأقصى صورها ..

كان رأس (سامح) مقطوعًا ، وأحد تلك الأغصان يلتف حول بقايا عنقه ، الذى ما زال الدم يتقاطر منه ، ويرفعه ليضعه أمام عدسة آلة المراقبة ، وكأنما تتباهى تلك النباتات القذرة بما أنجزته ..

وعلى الرغم من بشاعة المشهد ، لم يستطع (وليد) أن يرفع عينيه عنه لحظة واحدة ..

لقد ظلَّ يحدِّق فى رأس صديق عمره المقطوع ، وذهنه المذعور يسترجع القصة كلها منذ بدايتها ..

(سامح) كان على حق ..

لقد أخطأ ..

أخطأ خطأ رهيبًا ، عندما أخفى أمر تلك البذور ..

وعندما زرعها فى كوخه الخشبى ..

أخطأ عندما سمح لفضوله بـالتغلُّب علـى حكمتـه ، ودفعـه إلـى القيام بأمر يجهل تمامًا عواقبه ، وما يمكن أن يئول إليه ..

وأخطأ عندما لم يتراجع ، بعد أن أدرك هذا ..

كان لابد له أن يدمِّر تلك النباتات كلها ، بعد الجريمة الأولى ..

كان مـن الضرورى أن يفنيهـا ، قبل أن تتطوَّر ، وتتوحش ، وتتجاوز كل الحدود ، حتى حدود كوابيسه ..

إنه المسئول عن كل ما حدث ..

مسئول عن مصرع كل من لقى حتفه بسببها ..

مسئول عن مقتل (سامح) ..

(سامح) .. صديق العمر ..

انتفض جسده مرة أخيرة ، ثـم انطلقـت فـورة مـن الحـزم والحماس فى عروقه كلها ، فاعتدل بحركة حادة ، قائلاً :

ـ سيدفعون الثمن .

نطقها ، واندفع يغادر حجرتـه ، واتجـه من فوره إلـى مـرآب المزرعة ، فحمل ثلاثة صفائح من البنزين ، واندفع بها إلى الكوخ ..

وبكل غضبه ، أفرغ الصفيحة الأولى على باب الكوخ وحوله ، ثم دفع الباب بقدمه ، وهو يتوقَّع المقاومة نفسها ..

ولكن الباب استجاب فى بساطة ..

وانفتح ..

ولوهلـة ، وقـف (وليد) عنـد البـاب عصبيًا متوتـرًا ، يمسـك صفيحتـى البـنزين ، ثـم غمغم فـى لهجـة تجمـع بيـن العصبيـة والصرامة والغضب :

ـ انتهت اللعبة أيها الأوغاد ..

تقدَّم خطوتين إلى الداخل ، و ...

وأغلق الباب خلفه فى عنف ..

ولأنه لم يغلقه بنفسه ، فقد انتفض للموقـف ، واستدار يحدِّق فى الباب المغلق فى رعب ، ورأى غصنان قويان ينسحبان منه ، بعد أن أغلقاه فى إحكام ..

وبمنتهى العصبية ، التفت إلـى النباتـات ، التـى صـارت هائلـة عملاقة ، وصاح :

ـ كل هذا لن يجدى .

ألقى إحدى الصفيحتين أرضًـا بـالفعل ، فانسكب منهـا البـنزين بين النباتات ، وهمَّ بإلقاء الثانية ، و ...

« هل ستقتل أبناءك ؟! »

بدا الصوت أشبه بفحيح عميق ، أتى من باطن الأرض ، حتى أن جسده كله ارتجف لسماعه ، وراح يتلفّت حوله فى عصبية مذعورة ، بحثًا عن مصدره ، قبل أن يسمعه مرة ثانية ، يقول :

ـ ما من زارع يقتل زرعه .

صرخ فى رعب ، وهو يلتصق بالباب :

ـ من ؟! من يتحدّث ؟!

بدا الصوت أكثر عمقًا وفحيحًا :

ـ عجبًا ! ألا تعرفنا ؟!

تمايلت النباتات العملاقة فى نعومة عجيبة ، مع ذلك القول الأخير ، وبدت وكأنها تتلاقى كلها عند قمة الكوخ ، بكراتها الضخمة ، التى تكوّرت أكثر وأكثر ، وبدا وكأنها قد تحوّلت إلى كواكب خضراء مخيفة ، فى سماء الجحيم ..

ومرة أخرى ، وفى رعب أكثر ، هتف (وليد) :

ـ من أنت ؟!

اعتدلت النباتات العملاقة عندئذ ، وامتدّت أفرعها الطويلة ، تحيط بالسقف والجدران ، وسرت فى جسده قشعريرة مخيفة ، عندما

لاحظ أن بعضها يحمل أشلاء صديق عمره ورأسه ، ولاحظ أن الأفرع قد تعمّدت أن تحجب الرؤية تمامًا عن كاميرا المراقبة ، وأن تغلق الباب ، وكل المنافذ ، قبل أن ينبعث ذلك الصوت الرهيب مرة أخرى ، قائلاً :

ـ أنت على حق .. حان الوقت لنلتقى .

مع نهاية القول ، تمايلت النباتات مرة أخرى ..

ثم اتسعت عينا (وليد) عن آخرهما ..

فما حدث أمامه ، كان يفوق كوابيسه ..

كل كوابيسه .

* * *

كل النباتات لها جذور ..

حقيقة حفظها (وليد) عن ظهر قلب ، منذ حداثته ، على يد والده المزارع ، وتيقن منها مع دراسته للهندسة الزراعية ، وفنون الإنبات فيما بعد .. النبات يعنى الأرض ..

الخير ..

النماء ..

والاستقرار ..

كل نبات يمد جذوره فى التربة ، ويمتص منها الماء والغذاء ، لينمو ، ويترعرع ، ويتعمق فى مكانه ..

وفى كل يوم تمتد جذوره ، وتتعمق أكثر وأكثر ..

وحتى لو حاولت اقتلاعها ، فستجدها ، مهما بلغت ضآلة النبات ، قوية ، متماسكة ، تتشبث بالتربة ، وتقاتل للبقاء فيها ، وتدرك أن انتزاعها منها يعنى الجفاف ، والضياع ..

والموت ..

كل النباتات كذلك ..

إلا تلك التى يراها أمامه ، فى ذلك الكوخ الخشبى ..

وحدها كانت تختلف ..

تختلف تمام الاختلاف ..

تختلف عن كل ما عرفه ودرسه ، فى حياته كلها ..

ففى بطء وهدوء ، تفتحت تلك الكرات الضخمة ، فى قمة النباتات العملاقة ، وبرز داخلها ذلك الشىء ..

شىء أخضر ، مخيف ، له تكوين شبه آدمى ، بوجه ، وجسد ، وذراعين ، و ...

وساقين ..

هذا ما انتفض له جسده كله بمنتهى العنف ، عندما خرجت تلك الأشياء من كراتها ، وهبطت أرضًا ، واتجهت نحوه ..

وبكل رعب الدنيا ، التصق بالجدار ، وهو يحدّق فيها كلها ..

كانت أول مرة فى حياته ، وربما فى حياة البشر كلهم ، يرى نباتًا يسير ..

نباتًا بلا جذور ..

نباتًا تقدم نحوه ، وأحاط به .. وثب فى كيانه كله رعب ، ما بعده رعب ..

وجوه خضراء رهيبة ، أشبه بأوراق شجر كبيرة مفلطحة ، راحت كلها تحدّق فيه ، بعيون حمراء كالدم ، ونظرات كالشيطان نفسه ..

وحاول أن ينطق ..

حاول أن يقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن الرعب ألجم لسانه ، وجمّده فى حلقه ، فلم يستطع التفوه بحرف واحد ، وهو يحدّق فى تلك الوجوه الخضراء ، التى راحت تحدّق فيه بدورها ، بملامح لا يدرى ، ما إذا كانت تحمل له الامتنان ، أم الغضب .. كل الغضب ..

وبذلك الصوت الفحيحى العميق ، قالت النباتات :

ـ هل راق لك ما رأيته ؟!

استنفر كل ما تبقى من إرادته وقوته ، ليقول بصوت شاحب مبحوح مختنق :

ـ لست .. لست نباتًا .

أجابه ذلك الصوت ، الذى ما زال يحمل مصدره :

ـ فى عالمنا لا نعرف ما يعنيه هذا .. فكلنا على هيئتنا هذه .. كلنا ننمو متشابهين ، ونعتمد على كائنات أدنى فى تغذيتنا ونمونا .. كائنات لم نجدها فى هذا العالم ، فبحثنا عن بديل لها .

غمغم :

ـ البشر .

أجابه الصوت نفسه :

ـ ما زلنا نجهل ما يعنيه المصطلح .. لسنا ندرى حتى كيف جئنا من عالمنا إلى هنا ، ولكننا سندافع عن وجودنا .. سنقاتل من أجل البقاء ، حتى لو أفنينا عالمك كله .

غمغم فى عصبية :

ـ ليس هذا بمقدوركم .

بدا له الصوت ساخرًا ، وهو يقول :

ـ حقًا .

استعادت ذاكرته لحظة تلك الأهوال ، التى عانتها البلدة كلها ، منذ زرع تلك البذور ، ثم غمغم فى مرارة :

ـ أنا المسئول عن هذا .

أجابه الصوت :

ـ أنت أعدتنا إلى وعينا .. لهذا أبقينا عليك .. أنت منحتنا القوة .

مزقته الكلمات فى عنف ، فغمغم :

ـ أنا ؟!

نطقها وكأنه يستنكرها ، أو كأنه يلوم نفسه ألف مرة ؛ لأنه فعل هذا بعالمه ، دون أن يفكر فى عواقبه أو يتصورها ..

الآن فقط فهم كل ما حدث ..

فهم حديث الخفير عن رؤية النداهة ..

فهم ما أصاب الكلب ، والطفل ، وغيرهما ..

عرفت ما الذى التهم تلك البقرة ..

ومرة أخرى ، اتجه تفكيره إلى صفائح البنزين ، التى أحضرها معه ، والتى سكب بعضها بالفعل ، وتحسَّس جيبه ، بحثًا عن قداحته ، فقال ذلك الصوت فى صرامة :

ـ إياك حتى أن تفكر .

بهت للقول ، فأبعد يده عن جيبه بحركة سريعة ، وتواصل الصوت بنفس الصرامة :

ـ ما تسمعه لا ينتقل إلى أذنيك ، فلغتنا أصعب من أن تتعلمها أو تستوعبها ، ولغتك كذلك عسيرة الفهم بالنسبة لنا ؛ لذا فنحن نتخاطب عبر العقول وحدها .

اتسعت عيناه فى ارتياع شديد ..

تلك النباتات ليست وحشية فحسب ، بل تقرأ الأفكار أيضًا !!

وهذا يعنى أنها ستسيطر على الموقف كله ، دون فرصة واحدة للفوز أو النجاة ..

إنها ستقرأ أفكاره ، وستدرك نواياه ، وتتوقَّع كل خطواته التالية ..

لن يمكن مباغتتها قط ..

لن يمكنه مهاجمتها من حيث لا تتوقع ..

وبكل يأسه ، هتف :

ـ أنا صنعتك .

أجابه الصوت فى عمق أكثر :

ـ ومن قال إنه من حق الصانع أن يفنى ما صنعه ؟! ربما كنت مخيرًا فى أن تأتى بنا أو تتركنا ، ولكننا ، وبعد أن أصبحنا كيانًا واقعيًا ، لم تعد لديك إرادة القضاء علينا ، بل ولم يعد يحق لك أن تفعل .

غمغم فى انهيار :

ـ لقد صنعت وحشًا .

أجابه الصوت فى صرامة :

ـ وستتحمَّل وزر ما صنعت .. إلى الأبد ..

عربد غضب عارم فى جوانبه ، وجالت بخاطره فكرة إشعال البنزين ، حتى لو أدى هذا إلى مصرعه مع تلك النباتات ، وما أن راودته الفكرة ، حتى تحركت أفرع النباتات فى سرعة ، فكبلت حركته ، وانتزعت القداحة من جيبه ، وألقتها بعيدًا ..

إلى أقصى ركن من الكوخ ..

وكم شعر هو بالمرارة والعجز ، وذلك الصوت الفحيحى العميق يقول :

ـ كان ينبغى أن تدرك عقم المحاولة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ ولكن هذا يستوجب عقابًا .

مع نهاية الصوت ، الـذى خـاطب عقلـه مباشرة ، انحنى أحد تلك الأشياء نحوه ، وانسكب منه سائل ما على ذراعه ..

سائل وردى اللون ، ما أن لامـس جسده ، حتـى اشتعلت فيـه نيران رهيبة من الألم ..

لم يختبر فى حياته كلها مثل ذلك الألم ..

لقد بدا أشبه ببوْرة ، لمست جلده ، وبعثت فيـه حرارة كـالنيران ، راحت تنتشر بسرعة مخيفة ، وعلى نحو أشبه بشبكة العنكبوت ، فى ذراعه كلها ..

وصرخ (وليد) ..

صرخ ..

وصرخ ..

وصرخ ..

وعلى صراخه ، تجمع الخفراء ، والتفوا حول الكوخ الخشبى ، مذعورين ، متسائلين ، قلقين ، إلا أن أحدهم لم يجرؤ على لمس باب الكوخ ، أو المجازفة بفتحه ..

وبذلك الصوت العقلى الفحيحى العميق ، قال النبات :

ـ منذ هذه اللحظة ، ستعاودك هـذه الآلام ، أينمـا وحينمـا أردنـا .. سنقرأ أفكارك طوال الوقت ، ومـا تركنـاه فـى جسده لـن يتلاشـى قط ، ولا علاج له لديكم .. إنه أسلوب سيطرتنا عليك .. ستنفذ أوامرنا ، أو تذوق العذاب ألوانًا .

كان العذاب والألم رهيبيـن بـالفعل ، حتـى أنـه أمسـك ذراعـه ، قائلاً فى استسلام :

ـ سأفعل كل ما تريدونه .. أقسم لكم .

بدا الارتياح فى الصوت الفحيحى ، وهو يقول :

ـ عظيم .. اعتبارًا من هذه اللحظة إذن ، ستؤمن لنا الغذاء .

انتفض جسده ، وهو يغمغم :

ـ الغذاء .

أجابه الصوت ، بمنتهى العمق :

ـ نعم .. اللحم .. لحم البشر .

وانتفض جسده مرة أخرى ..

بمنتهى منتهى العنف .

* * *

ماذا سيفعل فى هذا المأزق ؟!

هذا هو التساؤل الوحيد ، الذى سيطر على عقل (وليد) ، وهو يعود إلى حجرته لاهثًا ، وكأنما دار حول الأرض كلها جريًا ..

لم يدر كيف غادر ذلك الكوخ الخشبى ، ولا ما الذى قاله لخفراء مزرعته ، الذين التفوا حوله ، تبريرًا لصرخاته داخله ..

كل ما يذكره هو أنه وجد نفسه يعدو بكل قوته ، ليصعد إلى حجرة نومه ، فى الطابق العلوى ..

وهناك ، وقف صامتًا لاهثًا ، يحدّق فى شاشة التلفاز الكبير ، فى رعب ما بعده رعب ، دون أن يجرؤ حتى على لمسه ..

ما يحدث فى ذلك الكوخ كان رهيبًا ..

وبكل المقاييس ..

لقد ساهم فى صنع وحش ، لا يعلم إلا الخالق - عزّ وجلّ - إلى أى مدى يمكن أن يتمادى ..

تلك الكائنات قد تبدو أشبه بالنباتات ، وتنمو مثلها من بذور ، إلا أنها حتمًا لا تنتمى لأى فصيلة نباتية عرفها فى حياته ..

إنها ليست نباتات حتمًا ..

إنها مخلوقات عاقلة ..

ذكية ..

وشريرة ..

أو على الأقل ، هى شريرة من وجهة نظره ، ونظر كل كائن أرضى فحسب ..

أما فى عالمها ، فهى مجرد كائنات ، لها الحق فى أن تحيا ، وأن تقاتل من أجل حياتها ، مهما كانت الصعاب ..

ومهما كان الثمن ..

وهو أتى بها إلى عالمه ..

هو زرعها فى تربتنا ، ورواها بمياهنا ، وأجبرها على النمو ، فى عالم غريب ..

عالم تجهل كل شىء عنه ، وستقاتل لتحيا فيه وتبقى ..

حتى لو التهمت البشر ..

كل البشر ..

ارتجف جسده ، وسرت فيه قشعريرة باردة كالثلج ، عندما بلغ تفكيره هذه النقطة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، عندما تذكر ذلك المطلب البشع ، الذى طالبته به تلك الكائنات ..

اللحم ..

اللحم البشرى ..

لقد كشفت أوراقها ، وأسفرت عن وجوهها وأنيابها ، وعن شراهتها لبنى جنسه ..

وعليه هو أن يشبع نهمها وجوعها ..

وإلا ..

مرة أخرى ، ارتجف جسده فى عنف ، فألقى نفسه على طرف فراشه ، ودفن وجهه بين كفيه ، وراح ينتحب ، قائلاً :

ماذا فعلت ؟! رباه ! ماذا فعلت ؟!

« أتيت بنا .. »

أتاه الجواب ، بذلك الصوت العقلى الفحيحى العميق ، فانتفض على نحو أكثر عنفًا ، ووثب من فراشه ، وحدَّق فى النافذة ، بكل رعب وذهول الدنيا ..

فهناك ، كان أحد أفرع النبات يتسلَّل داخل الحجرة ، ويزحف متجهًا إلى حيث وضع التلفاز الكبير ..

وبكل رعبه وعصبيته ، هتف :

ـ ماذا تريدون هذه المرة ؟! ماذا تريدون ؟!

عقب هتافه ، ظهر فرع ثان ..

وثالث ..

ورابع ..

عشرة أفرع على الأقل ، زحفت داخل حجرته ، والتفت حول التلفاز الكبير ، ثم سحبته نحو النافذة ، فتراجع هو مذعورًا ، وهو يتساءل عما ستفعل به ..

وعبر النافذة ، حملت الأفرع القوية التلفاز الكبير ، ثم غابت به عن عينيه ..

وانتفض جسده مرة أخرى ..

وأخرى ..

وأخرى ..

« مزيد من اللحم فى الطريق .. »

مرة أخرى ، تسلَّل ذلك الصوت كالفحيح فى رأسه ، فاتسعت عيناه فى رعب ، وغمغم مكررًا :

ـ مزيد من اللحم .

لم يحصل على جواب هذه المرة ، ولكن آخر الأفرع اختفى عبر النافذة ، خلف التلفاز الكبير ، فى نفس اللحظة التى التقطت فيها أذنا (وليد) سارينة سيارة شرطة تقترب ..

هنا فقط تذكَّر صديقه (سامح) وما أصابه ، فسرت فى جسده قشعريرة أخرى ، وأسرع يلقى نظرة من النافذة ..

كانت الأفرع تختفى داخل الكوخ الخشبى ، فى نفس اللحظة التى توقفت فيها سيارة الشرطة أمام فيلتـه الصغيرة ، وهبط منها رجل أصلع متوسط الحجم ، نظر إليه بعينين صارمتين ، وهو يقول :

ـ المهندس (وليد) ؟!

ازدرد (وليد) لعابه فى صعوبة ، وهو يشير برأسه إيجابًا ، فخفض الأصلع عينيه إلى الباب ، وتقدَّم وحده ، وكأنما لا يحتاج إذنًا للدخول ..

وفى لهفة وتوتر ، أسرع (وليد) يهبط إلى الطابق السفلى ، ليلتقى به ، وما أن فتح الباب ، حتى بادره الأصلع ، قائلاً :

ـ أين (سامح) ؟!

ارتجف جسد (وليد) وصوته ، وهو يقول :

ـ (سامح) ؟!

كان من الواضح أن ارتجافته لم تخف على الأصلع ، الذى رمقه بنظرة صارمة متشككة ، وتساءل فى لهفة هجومية :

ـ لماذا أقلقك ذكر اسمه إلى هذا الحد ؟!

تمالك (وليد) أعصابه فى سرعة ، وهو يجيب :

ـ لأنه كان المفترض أن يأتى لزيارتى مساء أمس ، إلا أنه لم يأت ، وهاتفه المحمول لا يجيب أى اتصال ، مما أقلقنى بشأنه ..

رمقه الأصلع بنظرة صارمة أخرى ، قبل أن يسأله :

ـ متى رأيت (سامح) آخر مرة ؟!

بحث عقل (وليد) عن جواب منطقى للسؤال ، حتى لا يتورَّط فى جواب يكشف أمره ، ثم لم يلبث أن قال فى عصبية :

ـ من أنت أولا ؟! ولماذا تطرح علىَّ كل هذه الأسئلة ؟!

مطَّ الأصلع شفتيه ، وقال :

ـ آه .. نسيت تقديم نفسى .. أنا العقيد (مدحت) .. رئيس (سامح) ، الذى اختفى تمامًا ، دون أن يترك خلفه أى أثر ، أو ينجح أى مخلوق فى العثور عليه .

جف حلق (وليد) ، وهو يقول :

ـ (سامح) اختفى ؟!

مرة أخرى رمقه الأصلع بتلك النظرة القاسية ، وقال ، وهو يتفحَّص ملامحه جيدًا :

ـ آخر ما سجله ، فى دفتر الأحوال ، هو أنه قادم إلى مزرعتك ؛ لفحص كوخ ما ..

ثم مال نحوه ، مضيفًا ، وكأنما يرصد كل ردود أفعاله عن قرب :

ـ كوخ خشبى .

وعلى الرغم من إدراكه لما يفعله الأصلع ، لم يستطع (وليد) كبح تلك الارتجافة ، التى شملت جسده كله فى وضوح ، ولا الشحوب الشديد ، الذى أصاب وجهه وصوته ، وهو يتمتم :

ـ أى كوخ خشبى ؟!

ابتسم الأصلع فى ثقة ، وكأنما يدرك أنـه قد وقـع علـى صيد ثمين ، وأدار رأسه نحو الكوخ الخشبى ، قائلاً :

ـ ربما هذا .

ثم أشار إلى الرجلين المصاحبين لـه ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ، واتجه ثلاثتهم نحو الكوخ ..

والعجيب أن (وليد) لم يحاول منعهم ..

لم يحاول حتى تحذيرهم ..

كان يبدو وكأنه قد استسلم للموقف كلـه ، وأدرك عدم جدوى المقاومة ..

وتركهم يقتحمون الكوخ ..

ترك اللحم البشرى الطازج يتجه بقدميه إلى حتفه ..

ولقد اقتحم ثلاثتهم الكـوخ دون أدنـى مقاومـة ، واندفعوا داخلـه ، وهم يشهرون مسدساتهم ، متصورين أنهم سيجدون داخلـه مجرمًـا خطيرًا ، أو أحد السفاحين المطلوبين ..

لذا ، فقد أدهشهم للغاية أن يجدوا داخله نباتات ..

نباتات عملاقة هائلة ..

وبينما يحدّقون فى المشهد ، بكل الدهشة والذهول ، أغلق باب الكوخ خلفهم بحركة حادة ..

واستدار الثلاثة إلى الباب المغلق ، ثم اعتدلوا مرة أخرى ..

وعندئذ ، رأوا أمامهم ذلك المشهد الرهيب ..

ومن موقفه ، خارج الكوخ ، سمع (وليد) دوى الرصاصـات ، وشاهد وميضها ، إلا أنه لم يحرّك ساكنًا ..

فقد انتظر ، حتـى هدأ كل شـىء ، ثـم أدار عينيـه فـى بـلادة واستسلام إلى السيارة ، التى تحمل لوحات الشرطة ..

لقد ازداد الموقف تعقيدًا ..

إلى أقصى حد .

* * *

5ـ الفرع الأخير ..

لم يعد هناك أمل ..

الموقف صار أكثر تعقيدًا من أن يكون له مخرج ..

أى مخرج ..

تلـك النباتـات الفضائيـة المفترسـة قتلـت مفتـش الشـرطة ومساعديه ..

تجاوزت كل الحدود ، ولم تعد تبالى حتى بكشف أمرها ..

إنها تقاتل الآن بوجوه سافرة ..

أو ببأس واضح ..

وهو لا يدرى ما الذى ينبغى أن يفعله ..

بل ولا ما الذى يمكن أن يفعله ..

إنه لا يدرى حتى ما الذى فعلته بجثث المفتش ومساعديه ، ولكن ما يعرفه هو أن سيارتهم ، التى تحمل أرقام الشرطة ، ما زالت تقف أمام فيلته ، وكل الخفراء يهرعون إليها ، إثر دوى الرصاصات ..

لقد بذل جهدًا خارقًا ؛ لإخفاء سيارة (سامح) بعد مصرعه ، أما هذه السيارة ، فلا سبيل لإخفاء أمرها ..

ها هم أولاء الخفراء ، يلتفون حول الكوخ الخشبى ، وما زالوا يخشون مجرد لمسه ، على الرغم من ثقتهم فى أن دوى الرصاصات قد انبعث من داخله ..

لا يمكنه أن يصمت ..

أو أن يتجاوز الأمر ..

لقد تحوّل الموقف كله ، من تجربة متهورة ، إلى مأساة شاملة ، جعلت منه ـ شاء أم أبى ـ مجرمًا آثمًا رهيبًا ، وشريكًا فى أكبر رعب يمكن أن تواجهه البشرية ، فى تاريخها كله ..

رعب بذور أتت من هناك ..

من قلب الفضاء ..

أتت حاملة معها الموت والفناء للبشر ..

كل البشر ..

بل كل الكائنات ..

ولا يمكن أن يتجاوز هذا ..

لا يمكن أن يتجاوزه ، ويمضى فى حياته ، حتى ولو عجزت يد القانون عن إثبات تورطه فى الأمر ..

تذكّر فى تلك اللحظة أن صفيحتى البنزين ما زالتا هناك ، داخل ذلك الكوخ الخشبى ، وأن المناخ الرطب ، لن يسمح بتبخر ما أسكب من الصفيحة الثالثة بسرعة ..

إنها فرصته إذن ..

فرصة القضاء على ..

انتبه فجأة إلى أن تلك الأشياء تستطيع الغوص فى عقله ، وقراءة أفكاره ، فسعى لتشتيتها ، وراح يتذكّر الأحداث السابقة ، وهو يتجه فى حزم نحو السلم ..

تذكر مقدم تلك البذور ، وما سبقته من انفجارات ودمار بالقرية ، وتذكّر زراعتها ، ونموها ، وشراستها ..

و(سامح) ..

مع تلك اللمحة الأخيرة ، كان قد بلغ الكوخ الخشبى ، فهتف به أحد الخفراء فى توتر :

ـ سمعنا دوى رصاصات هنا يا بك .

ألقى عليه نظرة خاوية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، خشية أن يتحرك لسانه ، فينطلق معه عقله ، وتكشف تلك الكائنات المتوحشة ما ينتويه ..

كائنات متوحشة .. توقف طويلاً عند الوصف ، وراح يتساءل فى أعماقه : أهى فعلاً كائنات متوحشة ، أم مجرد كائنات مسكينة ، وجدت نفسها فى بيئة مختلفة ، محرومة من غذائها الرئيسى ، فسعت للبحث عن غذاء بديل ، بأى ثمن ..

ماذا لو أنه هو تعرّض للموقف ذاته ؟!

ماذا لو أن كائنات أخرى حملته إلى بيئة مختلفة ، عجز عن التكيف فيها ، والبقاء حيًا داخلها ، إلا لو قتل بعض سكانها الأصليين ..

هل كان سيتردّد عندئذ ؟!

من أدراه ؟!

لا أحد يمكنه الجزم ، ما لم يوجد فى المناخ والظروف نفسهما ..

لا أحد ..

كاذب هو من يدّعى العكس ؛ فغريزة البقاء ، فى أعماق كل كائن حى ، تدفعه للحفاظ على حياته بأى ثمن ..

حتى لو كان الثمن هو حياة الآخرين ..

وسلامتهم ..

وأمنهم ..

لهذا يرتكب الإنسان كل موبقات الدنيا ..

يكذب .. يسرق .. وحتى يقتل ، للحفاظ على نفسه ..

نفسه أولاً ..

دارت كل هذه الأفكار فى ذهنه ، وهو يدفع باب الكوخ بيده ، ويدلف إليه ، ويغلق بابه خلفه ، أمام عيون خفرائه المندهشة والمستنكرة ، والمعذورة أيضًا ..

وفى الداخل ، بدا له الموقف مختلفًا ..

لم تكن تلك النباتات قد انتهت من التهام طعامها بعد ، وما زالت تمزق أجساد ضحاياها ، والدماء متناثرة فى كل مكان ، وبقايا الأشلاء تذوب ، بفعل حامض عجيب تفرزه أفرعها ..

وعند دخوله ، توقف كل هذا ..

التفتت النباتات كلها إليه ، فى تحفز واضح هذه المرة ، كما يفعل القط ، إذا ما حاول أحدهم سلبه طعامه ..

« لن تجرؤ .. »

تسلَّل ذلك الصوت الفحيحى الرهيب إلى رأسه ، إلا أنه لم يحدث به التأثير نفسه ، فقال فى هدوء عجيب :

ـ ولماذا ؟!

أجابه ذلك الصوت :

ـ لأن مصرعنا سيعنى مصرعك أيضًا .. لقد ارتبط مصيرك بمصيرنا ، ودراستنا لجنسكم تؤكد أن التضحية بالنفس ليست جزءًا من طبيعتكم الأصلية ..

غمغم بنفس الهدوء العجيب :

ـ أهذا ما توصلتم إليه ؟

وعلى الرغم من أن الصوت يتسلَّل إلى عقله مباشرة ، فقد بدا أقل عمقًا وثقة ، وهو يقول هذه المرة :

ـ ألديك رأى آخر ؟!

لاحظ أن عملية التهام الأشلاء قد توقفت فى تلك اللحظة ، وكأن النباتات كلها تنتظر جوابه ورد فعله ، ولقد تطلَّع هو إليها كلها بنظرة خاوية تمامًا ، ثم أجاب بمنتهى الهدوء :

ـ إنها بالطبع تتعارض مع غريزة البقاء فى البشر .

بدا وكأن جوابه قد أراحها كلها ، فعادت تلتهم الأشلاء ، إلا أنه أخرج قداحته ، وأشعلها ، وهو يضيف بمنتهى الحزم :

ـ ولكن الضرورات تبيح المحظورات .

مع نهاية عبارته ، وربما حتى قبل أن تكتمل ، ألقى القداحة

المشتعلة فوق البنزين المنسكب ، ودفـع الصفيحـة الثانيـة بقدمـه فى قوة ..

واشتعلت النيران ..

اشـتعلت ، وانتشرت ، وتأجّجت فى سرعـة مخيفـة ، حتى بدا وكأن الكوخ كله قد اشـتعل دفعـة واحـدة ، أو أن ذلك الحامض ، الذى تفرزه النباتـات ، لاتهـام ضحاياها ، والـذى يجعل عظامهـا تبدو نظيفة لامعة ، موصل جيد للنيران ..

وعلى الرغم من أن أفرع النباتات قد أغلقت الباب فى إحكـام ، وذلك الصوت الفحيحى يصرخ فى مخه :

ـ ستقضى معنا .. ستقضى معنا ..

وعلـى الرغم من صراخ الخفراء فـى الخـارج ، ومحـاولتهم اليائسة لإطفاء النيران ، إلا أن (وليد) لم يحـرّك سـاكنًا ، وتـرك أفرع النبات تلتف حول جسده وعنقه وتعتصر منه الحياة ، وهـو صاغر مستسلم ، مدرك أنه يدفع حياته كلها ، ثمنًا لبقاء البشرية ..

وقبل السيطرة على النيران ، كان الكوخ كله قد تحوّل إلى كتلة من اللهب ، ثم لـم يلبث سقف الكوخ أن انفجـر ، وانطلقـت منـه شرارات رهيبة ، أشبه بالألعاب الناريـة ، صنعت مظلـة هائلـة ، فوق البلدة كلها ، قبل أن تتساقط فى كل مكان منها تقريبًا ..

وبكل ذعر الدنيا ، انطلق الخفراء مبتعدين فى رعب ، وراحـوا يراقبون تلـك الألعـاب النـارية الشيطانية ، وهى تتناثر ، وتتناثر ، وتتناثر ..

وبعد نصف ساعة على الأكثر ، وعند وصـول سـيارات الإطفـاء ، كان الحريق قد خمد تقريبًا ، ولم يبق خلفه أثر لأى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

لا تلك النباتات ، ولا أشلاء الضحايا ..

ولا حتى جثة (وليد) ..

ولشهر أو يزيد ، تهامس الكل فى القريـة عن النداهـة ، التـى قتلت رجال الشرطة ، وأحرقت الكوخ ، وحملت صاحبه معها إلـى أعماق الأرض ..

ثم راح الهمس يخفت ، ويخفت ..

وبعد شهرين تقريبًا ، لم يعد أحد يتحدّث عن هذا الأمر ..

وذات ليلة مقمرة ، بعد مرور الشهرين ، تسلّل فـأر حقل بين أعواد البرسيم ، ثم توقف حائرًا ، أمـام عود مختلـف ، بـدت فـى قمته كرة غريبة الشكل ..

وفجأة ، انفتحت تلك الكرة ، وانقض منها كائن ما على ذلك الفأر ..

وصرخ الفأر .. وصرخ .. وصرخ .. ولكن صراخه لم يجذب انتباه أحد ، خاصة وأن هذا الصراخ قد تكرَّر أكثر من عشر مرات ، فى أماكن مختلفة من البلدة ووسط حقول مختلفة ..

نفس الحقول التى تساقطت فيها تلك الألعاب النارية ..

وحتى مع العثور على هياكل عظمية نظيفة تمامًا ، لتلك الفئران ، لم يتصوَّر مخلوق واحد أنه يشهد البداية ..

بداية النهاية .

* * *

تمت بحمد الله

نـــدوة

(قصة قصيرة)

السيد / ..... نتشرف بدعوة سيادتكم لحضور الندوة التى تقيمها .....

لم يصدّق (وجدى) عينيه ، وهو يطالع تلك الدعوة للمرة الثالثة ، منذ وصلت إلى بريده هذا الصباح ..

كانت أوّل مرة فى حياته ، يدعوه فيها أحدهم إلى ندوة ما ، أية ندوة ..

ولكن الاسم على المظروف صحيح ، وكذلك العنوان .. لايوجد خطأ إذن إنها دعوة موّجهة إليه بالفعل ..

ألقى نفسه على مقعد قريب ، وراح يلهث فى انفعال ، وذهنه يستعيد الموقف مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ..

منذ تخرّج من كلية الآداب ، وبدأ رحلة البحث عن لقمة العيش ، وهو يحلم بأن يصبح كاتبًا شهيرًا مرموقًا ، وعلى الرغم من عشرات المقالات ، التى أرسلها إلى كل صحف ومجلات (مصر) ، ومئات القصص القصيرة ، التى نسخ منها عدة نسخ ، وأنفق نصف راتبه المحدود على إرسالها ، إلا أنه لم يحظ سوى بنشر مقال واحد ، فى صفحة الرأى ، فى جريدة محدودة ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد ابتاع عشر نسخ من تلك الجريدة ، وأهداها إلى أمه وشقيقته ، وجاره ، وصديقه ، وتمنى لو استطاع أن يهدى نسخة منها إلى كل زملاء العمل ، إلا أنه اكتفى بأن ألصق الصفحة ، التى نشر فيها اسمه على الجدار المجاور لمكتبه ؛ ليطالعها كل من يأتى إليه ..

ولفترة طويلة ، كان يشعر بالفخر ..

إلا أنه كان المقال الوحيد ، ولم يحظ آخر بالفرصة نفسها قط ، على الرغم من أن حماسه قد تضاعف ، وأرسل بعدها ألف مقال ، لكل الصحف والمجلات الأخرى ..

ومع مرور الوقت ، بدأ يشعر باليأس والإحباط ، ويتخلّى عن الفكرة كلها ، ويغرق نفسه فى عمله الروتينى البائس ..

ثم فجأة ، وصلته تلك الدعوة ..

وأنعشت الأمل فى صدره مرة أخرى ..

إنها دعوة لحضور ندوة ثقافية ، وهذا يعنى أن المجتمع الثقافى قد اعترف به أخيرًا ..

شعر بنشوة عارمة مع الفكرة ، وطالع الدعوة للمرة الأخيرة ، وقرأ اسم الفندق المدوّن بها ، ثم نهض يختار ثيابًا ملائمة للندوة ..

إنها ستقام فى فندق من فنادق خمسة النجوم ، وهذا يعنى أن عليه أن يرتدى أفضل ما لديه ؛ لذا فقد أخرج حلة الأفراح والمناسبات الخاصة ، وأرسلها إلى الكواء ، وانتقى قميصًا ناصع البياض ، ورباط

عنق زاهى الألوان ، واقترض من زميله وصديق عمره ساعته الكبيرة الذهبية ، وحلق ذقنه ، وهذب شعره ، واستخدم أفضل عطر لديه ..

كانت الأيام الأخيرة من الشهر ، ولم يتبق معه الكثير ، إلا أنه لم يكن ليجازف بركوب حافلة عامة ، حتى لا يتلف زيه ، لذا فقد جازف وركب سيارة من سيارات الأجرة ، تقاضى سائقها كل ما تبقى معه تقريبًا ؛ ليوصله أمام باب الفندق مباشرة ..

ولكن مظاهر الاستقبال عوضته عن كل هذا ..

كانت هناك فتاة جميلة ، أعطته زهرة حمراء ، لمجرَّد أنه يحمل دعوة رسمية ، وقادته إلى صفوف متراصة من المقاعد ، وأجلسته فى منتصفها ، ثم منحته ابتسامة عذبة ، وغادرته لتستقبل الآخرين .. وعلى مقعده ، جلس هو منتشيًا (منتعظًا) ، يبحث عن أية إشارة إلى موضوع الندوة ، وعيناه تفتشان عن أية وجوه شهيرة بين روادها ، الذين راحوا يتوافدون واحدًا بعد الآخر ..

لم يكن هناك أى وجه مألوف بين الحضور ، الذين تزايد عددهم ، حتى بلغ المائتين تقريبًا ، مما بدأ يشعره بالتوتر والعصبية ، خاصة وأن الوقت يمضى ، دون أن تبدأ الندوة ، ودون أن يعرف حتى ما هو موضوعها ..

ثم وصلت كاميرات التليفزيون ..

وعادت إليه النشوة ..

المصورون انتشروا فى القاعة ، ووضعوا الكاميرات فى عدة أماكن وتصوَّر هو وجهه على شاشة التليفزيون ، وانتشى أكثر وأكثر ، وخاصة عندما ظهرت تلك المذيعة الشهيرة ، ذات الوجه الجميل ، وبدت عصبية أكثر مما ينبغى ، وهو الذى اعتاد رؤيتها باسمة الثغر دومًا على الشاشة ..

وبسرعة ، ظهر كاتب شهير ، يعتبره مثله الأعلى ، وهو فى الوقت ذاته رئيس تحرير مجلة كبرى ، أرسل إليها العديد من المقالات ، التى لم تنشر قط ..

وتسارعت دقات قلبه ، وهو يرى كاتبه المفضَّل عن قرب ، وتمنى لو أمكنه أن يصافحه ، أو يلتقط صورة إلى جواره ..

وفور وصول الكاتب الشهير ، بدأت الندوة ، وأعلنت المذيعة الشهيرة ، وقد استعادت ابتسامتها العذبة ، وواجهت كاميرات التليفزيون ..

عندئذ فقط علم هو موضوع الندوة ..

وتبخرت نشوته ..

وارتجف جسده بشدة ..

فالندوة عن الكتاب الفاشلين ، الذين يرسلون مقالاتهم إلى الصحف والمجلات ، فلا تنشر لضعف مستواها ، أو ركاكة أسلوبها .. ولقد تمت دعوته ، ليمثل هذه الفئة ..

لهذا لم تبد الوجوه مألوفة ..

فكل الحاضرين مثله ..

فاشلون ..

انكمش فى مقعده بشدة ، وارتجفت كل خلية فى جسده ، وهـو يحاول الاختباء من الكاميرات ، التى تجوس خلال الوجـوه طوال الوقت ، والكاتب الكبير يتحدّث ..

ويتحدّث ..

ويتحدّث ..

ووسط حديث الكـاتب الكبـير ، وعلـى الرغـم مـن عدسـات التصوير ، تسلّل هو وسط المقاعد ، حتى بلغ مدخل القاعة ..

وخرج ..

أوّل ما فعله ، بعـد أن غادر النـدوة ، هو أن حلّ رباط عنقـه ، وطواه بإهمال ، ودسّه فى جيب سترته ..

ثم ضحك ..

ضحك من كل قلبه ، وهو يسير على قدميه ، ويداه فـى جيبى سراويله ، متجهًا نحو موقف الحافلة العامة ..

هذا كل ما تبقى له ..

أن يعود ..

وأن ينسى ..

إلى الأبد .

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
حبيبى
دراسة
٨ ـ الـــذروة

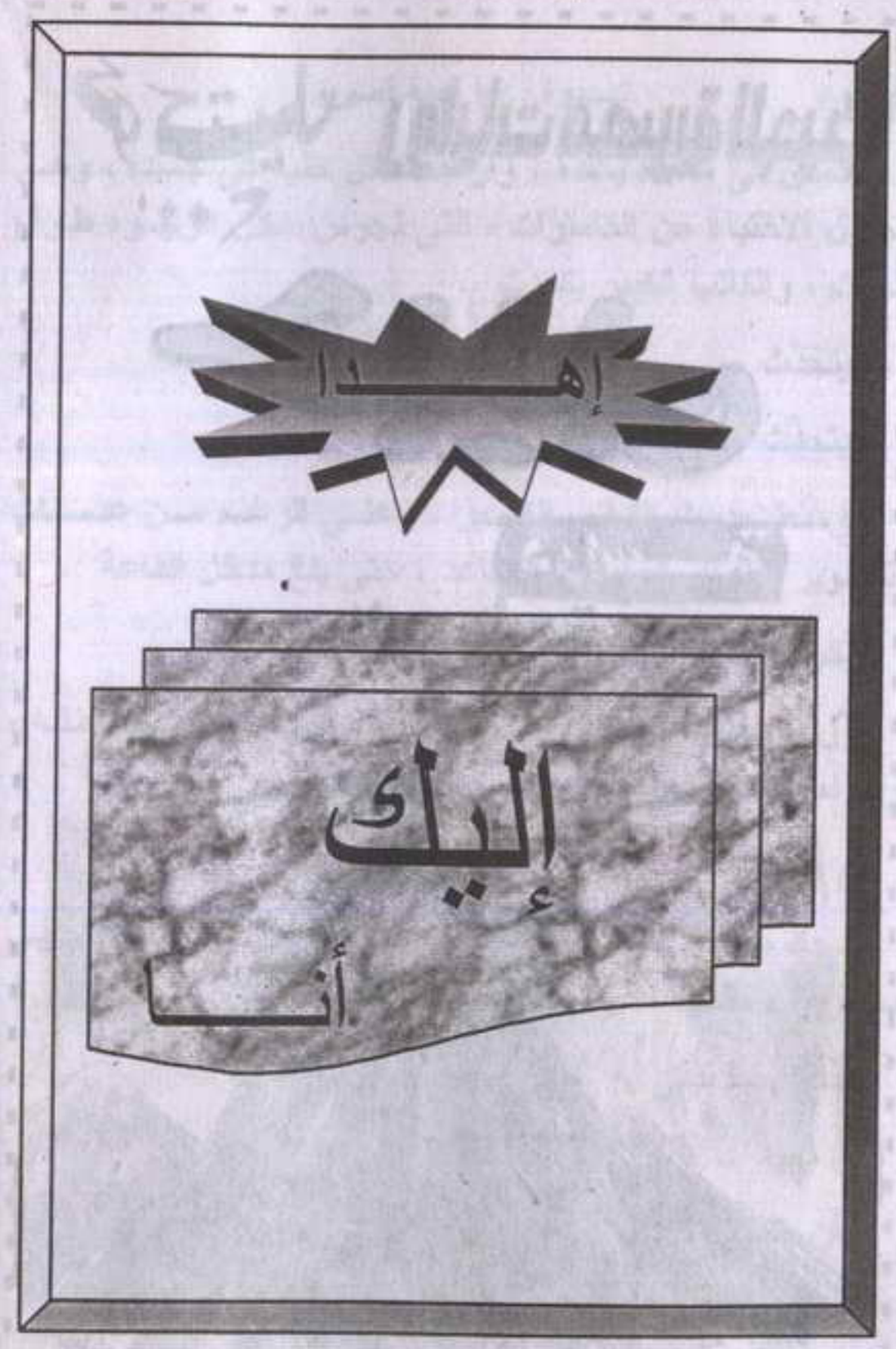

8 ـ الـــــذروة ..

فى كل مرحلة من مراحل حياتنا ، هناك حتمًا ذروة ..

ذروة يبلغ فيها الشىء ـ أى شىء ـ قمتـه ، ومـــداه ، ويصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه ..

هناك ذروة للنجاح ..

وللفشل ..

وللغضب ..

وللفرح ..

وأيضًا للحب ..

ولكن المدهش ، فى كل الحالات ، هو أن الإنسان لايدرك قـط أنه بلغ ذروته ..

الشـخص يمكـن أن ينجـح ، ويواصـل النجـاح والتقدُّم ، ولكنـه لايدرك قط أنه قد فاق أقرانه بكثير ، وأنه قد تجاوز كل الحواجـز ، وبلغ ذروة لم يبلغها سواه ..

ربمـا يشـعر الآخـرون بهـذا ، أمـا هـو ؛ فينشـغل بنجاحـه عن إدراك ذروته ..

ثم تبدأ الذروة فى الانحسار ..

ويدرك المرء أين كان بالضبط قبل هذا ..

هذا يحدث أيضًا فى كل الأحيان ، وبالذات فى الحب ..

وبلوغ ذروة الحب أمر لا يدركه العديد من المحبين ؛ إذ أنه من الطبيعى أن تتدرّج المشاعر ، من الودّ ، إلى الإعجاب ، إلى الانبهار ، إلى الحب ..

ثم يتطوّر الحب ..

ويتطوّر ..

ويتطوّر ..

وإذا ما كان الحب متبادلاً بين الطرفين ؛ فسيبلغان ذروته ، دون حتى أن ينتبها إلى ذلك ..

وذروة الحب أمر جميل ..

بل هو أجمل ما فى العلاقات الإنسانية كلها ..

فمع ذروة الحب ، يتوقّف الطرفان عن التعامل من منظور فردى ، ويبدأان الانتقال إلى المعيار المزدوج ..

كل شىء أصبح يرتبط بهما معًا ، وليس بأحدهما دون الآخر .. كل شىء ..

العواطف ..

المشاعر ..

والأحاسيس ..

وحتى الأحلام ..

أفكارهما نفسها تحويهما معًا ، فلا أحد منهما يتخيّل حياته من دون الآخر ، ولا يرى مستقبله إلا معه ..

الوجبة الواحدة لايصبح لها مذاق ، إلا إذا تناولاها معًا ..

الحلم يكمله أحدهما للآخر ..

ورويدًا رويدًا ، تمتزج روحاهما ، ويصبحان أشبه بشطرى المخ ، لايمكن أن يعمل أحدهما دون الآخر ، وإلا أصيب الجسد بشلل كبير ..

ومع الحب ، تمتزج الأهداف والنوايا ، وتتقارب الأفكار والطموحات ، وتصبح سعادة أحد الطرفين هى الهدف الأسمى للطرف الآخر ..

حتى الألم ، يتحوّل إلى لذة ، لو أن ثمنه هو ابتسامة سعادة ، أو نظرة حب ، لدى الطرف الثانى ..

عندئذ يكون الاثنان قد بلغا الذروة ..

ولكنهما لن يدركا هذا ..

لن يدركاه حتى تحدث الرجّة ..

ومن المؤسف أنها تحدث دومًا ..

الإنسان داخله شيطان مـا ، يتوتر إذا مـا بلـغ ذروة السـعادة ، فيبدأ فى نبش كل خليـة من خـلايا المـخ ، فى محـاولة لإيقـاظ لمحة ما ، أية لمحة ، يمكن أن تفسد الهناء ..

والعجيب أنه ينجح فى كل الأحوال ..

ربما لأن النفس البشرية ضعيفة ، أو أنهـا أمّـارة بالسوء كمـا يقولون ..

ففى ذروة الحب ، لابد وأن يبدأ أحد الطرفين فى التمرُّد ، علـى نحو أو آخر ..

والبداية تكون دومًا من رفض الازدواجية ..

فى مرحلة ما ، لا يمكن تحديدها قط ، يبدأ ذلك الشقُّ الصغـير فى التكوُّن ، وسط العلاقة الازدواجية الجميلة ..

شقٌّ يبدأ أصغر من أن يلفت الانتباه ، أو من أن يتوقّـف عنـده أحد ..

وربما ينشأ من موقف ..

أو حدث ..

أو حتى كلمة قيلت ..

المهم أن شيطان الفساد يتلقّى هذا ، ويضخمه ، ويضيف إليـه عشرات الأحداث الصـغيرة ، عبـر علاقة طويلة ..

وهنا يتسع الشقُّ ..

ويتسع ..

ويتسع ..

وفى لحظة ما ، تتهاوى الازدواجية ، وتعود الفردية للسيطرة ..

كل طرف من الطرفين يبدأ الحديث عن نفسه ..

عن مشاعره ، وأحاسيسه ، وعذاباته ، وآلامه ..

عن كل ما تحمله ؛ لتستمر العلاقة ..

وكل شخص يفكّر فى نفسه فقط ، دون الآخر ..

ومع التفكـير والفرديـة ، تبدأ مرحلـة التحدّى ، والرغبـة فـى إثبات الذات ..

ويتسع الشقُّ أكثر ، وأكثر ، ويتحوّل إلى هوة ساحقة ..

وربما يتدخّل البعض ، أو حتى يجلس الطرفان للمناقشة ، وتحلّ المشكلة ، ويعود المحبان إلى بعضهما البعض ..

ولكن ليس إلى الذروة ..

فالذروة قد ذهبت ..

وإلى الأبد ..

ما حدث بينهما سيظلّ دومًا أشبه بشرخ ما ، فى لوحٍ من الزجاج البلّورى النقى ..

صحيح أنه لن يؤدى إلى انهيار الزجاج ؛ إلا أنه سيفقده نقاءه وشفافيته ..

وسيظل الشرخ مرئيًا دومًا ..

يستحيل أن يعود لوح الزجاج إلى شفافيته الكاملة أبدًا ..

وكذلك الذروة ..

إنها إما أن تكون ، أو لا تكون ..

وأبدًا لا تعود ..

الوسيلة الوحيدة للحفاظ على ذروة الحب إذن ، هى ألا نفقدها إذا ما وصلنا إليها ..

وهذا ليس بالأمر السهل ..

وليس بالمستحيل أيضًا ..

كل المطلوب منا هو أن نزيد مساحة الحب فى أعماقنا ، حتى تحتلّ القدر الأكبر من مشاعرنا ، فتنزاح إلى جوارها كل المشاعر والعواطف السلبية الأخرى ..

أن نثق فيمن نحب ..

فى مشاعرنا نحوه ..

ومشاعره نحونا ..

نثق فى أن كل ما يفعله هو بدافع الحب وحده ، وليس بأى دافع آخر ..

حتى لو أخطأ ، لابد وأن ندرك ونثق فى أنه لم يقصد هذا ، ولم يتعمّده ، ولم يسع قط لإيذائنا ..

الحب هو الثقة ، والاقتناع ، والإيمان بحسن النوايا والمقاصد ..

لو افترضنا فقط حسن النية ، ستسير سفينة الحب فى بحر الحياة ، حتى لو انقلبت ، أو هاجمتها العواصف ..

والحياة لا تخلو قط من العواصف ..

وفيها يثبت الحب وجوده ..

فالحب لا يبلغ ذروته ؛ لأن المحبين يتشاركان ساعات الفرح والسعادة والهناء فحسب ، ولكنه ينمو ويزدهر ، عندما يواجهان معًا المصاعب والعواصف ..

ولن نبالـغ لو قلنـا : إن الأزمـات تصنـع حبًا يفـوق ما تصنعه أيام السعادة والهناء ..

بل تصنع ما هو أقوى من الحب ..

الثقة ..

وما يساعد ذروة الحب على الاستمرار هو الثقة ..

والثقافة ..

وهدوء النفس ..

ولست أشك لحظة ، فى أن نصف من سيقرءون هذا المقال سيسخرون من كل كلمة جاءت فيه ، وسيؤكدون أن الحب نفسه لم يعد موجودًا ، فما بالك بذروته !!

ثم إن بعضهم سيشكك فى نمو العواطف والمشاعر ، فـى مثل هذا الزمن الصعب ..

زمن المادة ، كما يطلقون عليه ..

والواقع أننى أشعر بالكثير من الشفقة ، على من يفكرون بهذا الأسلوب ، ومن حرموا أنفسهم من الشعور بأسمى عواطف البشرية ..

فالحب موجود دومًا ، مهما تعقَّدت الحياة ، أو زادت ماديتها ، بل إنه ينمو ويزدهر أكثر ، فى المجتمعات المغرقة فـى المادية ؛ نظرًا لأن الناس يكونون فيها أكثر حاجة إلى الحب ..

وإلى كل العواطف ..

كل ما فى الأمر ، هو أن البعض أصيب بحالة من جفاف المشاعر ، أو من عدوى القساوة ، مبررًا هذا بصعوبة المعيشة ، وضعف الإمكانيات ، أو غلظة تعامل الناس ، مع بعضهم البعض ..

ولست أظن الدنيا يعنيها هذا ..

فمهما كانت مشاعرنا ، وظروفنا ، وسبل عيشنا ، فسنحيا مرة واحدة لا غير ..

مرة ينبغى أن نستمتع فيها بكل ما أحله لنا الله (سبحانه وتعالى) ؛ إذ من الجحود أن يمنحنا نعمته (عزَّ وجلَّ) ، فنتجاوز عنها لأى سبب كان ..

وحتى لو كانت الحياة قاسية ، فلماذا لا نبحث فيها عن قبس من السعادة ..

لمحة من النور ..

همسة حب ..

لِمَ لا ؟!

سل نفسك هذا السؤال ، وابحث عن جوابه ، وتذكَّر أنك ستحيا مرة واحدة ..

وذروة واحدة ..

فى النجاح ..

والحياة ..

والحب ..

* * *

ذلـك اليـوم

كل شىء كان يسير على النمط المعتاد فى الحى ..

حتى ذلك اليوم ..

دخان عجيب ، تصاعد عبر شقٍ كبير ، فى منتصف الشارع ..

دخان أثار موجة من التساؤلات ..

والقلق ..

والخوف ..

ولكن ذلك الدخان كان مجرد بداية ..

فما حدث بعدها ، كان الرعب بعينه ..

فى ذلك اليوم ..

و . نبيل فاروق

1 ـ الشـــق ..

لا أحد يدرى كيف بدأ ذلك الأمر ..

لا أحد رصد علاماته الأولى ..

كل ما يذكره سكان ذلك الحى الفقير ، شبه المنسى ، عند أطراف العاصمة ، هو أن الطريق فجأة لم يعد صالحًا لمرور السيارات ..

شق صغير ظهر فى منتصفه ذات يوم ، ثم راح يتسع ..

ويتسع ..

ويتسع ..

لم يحدث هذا بسرعة ملحوظة حتمًا ، وإلا لأثار ألف ألف علامة استفهام ..

ولكن الشق بدأ كضربة معول فى منتصف الشارع القديم ، ثم لم يلبث بعد شهر كامل ، أن أصبح حفرة باتساع عشرة سنتيمترات ، ولم يمض العام ، حتى كان طرفيه قد هاجرا إلى الجانبين ، فقطع الشارع كله ..

عندئذ ، أصبح مرور السيارات عسيرًا ..

كان الأطفال يعبثون بذلك الشق ، ويلهون عنده ، ويمتعهم أن يلقوا حصاة داخل ظلمته ، ويرهفون أسماعهم ، فلا يبلغهم صوت ارتطامها بالقاع قط ..

وفى كل مرة ، كان انتظارهم يطول ويطول ، ثم لا يلبث أن يتحوّل إلى ضحكات طفولية مرحة ، وصفقات بأكف صغيرة ، حول الشق الكبير ..

وذات يوم ، جذب الأمر انتباه بعض شباب الحى ، فأشعلوا قطعة من القماش ، مبلّلة بالبنزين ، وألقوها فى الشق ، وراحوا يتابعون سقوطها ، وهى تبتعد ، وتبتعد ، وتبتعد ، وضوؤها يخبو ، ويخبو ، ويخبو ..

ولم يتوقف ابتعادها أبدًا ..

ولم ينطفئ ضوء لهيبها إلا بعد وقت طويل ..

ومن هنا ، بدأ الكل يتحدّث عن ذلك الشق ، الذى يبدو وكأنه يغوص حتى أعمق أعماق الأرض ..

وبدأ الخوف منه ..

أو حتى من المرور به ..

كل المارة كانوا يتجنبون محاولة القفز عبره ، على الرغم من أن اتساعه لم يكن قد زاد عن عشرين سنتيمترًا ، وإنما كانوا

يلتصقون بجدار أحد المنزلين على الجانبين ، ويعبرون على جواره ، وهم يتطلعون إليه فى شىء من الخوف والرهبة ، وكأنما سيقفز الشيطان نفسه خارجه بغتة دون سابق إنذار ..

ومع الفكرة ، بدأت الأمهات لعبة إرهاب الصغار ، التى نمارسها كلنا فى عالمنا ، دون أن نقدّر عواقبها وتبعاتها ..

فإذا ما أساءوا التصرّف ، سيخرج الشيطان من شق الشارع ، ويأخذهم معه إلى الأعماق ..

كلهن ردّدن هذا ..

وكلهن أرهبن صغارهن ..

وأصبح الصغار يخافون الشق ، ويرهبونه ، ويخشون مجرد المرور إلى جواره ..

وفى الوقت نفسه ، وذات ليلة من ليالى الشتاء الباردة ، ازداد اتساع الشق دون مقدمات ..

أوى الناس إلى أسرتهم واتساع جانبيه لا يزيد عن السنتيمترات العشر ، واستيقظوا ليجدوها قد زادت عشرًا ..

لا أحد يدرى متى أو كيف حدث هذا !!

المهم أنهم وجدوه هكذا ..

وتحوّل الخوف إلى فزع ..

فزع من ذلك الشق الغامض ، ومن وقوع الصغار المحتمل فيه ، ومما قد يجلبه من باطن الأرض ..

ومع الفزع ، انهالت الشكاوى على إدارة الحى ، تطالبه بسرعة إغلاق وسد ذلك الشق ، قبل أن يزداد اتساعًا ، ويؤدى فى المستقبل إلى كارثة ..

وكالمعتاد ، تباطأت إدارة الحى فى تنفيذ إرادة سكانه ، واكتفت بإرسال مهندس ، ألقى نظرة على الشق ، ثم دوّن بضع كلمات فى كراس كبير معه ، ورحل فى سيارة الحكومة ..

ولم يحدث أى شىء بعدها ..

ولأن الناس أصبحت تخاف ذلك الشق بالفعل ، تطوّع الحاج (عوض) ، وهو مقاول بلدى من سكان الحى ، يعمل فى كار المعمار منذ نعومة أظافره ، دون أن يجيد القراءة والكتابة ، وأحضر على نفقته الخاصة عدة أجولة من الأسمنت والرمل ، وفريق من العمال ؛ لسد ذلك الشق ..

ولقد عمل الكل حقًا بمنتهى النشاط ، وبذلوا أكبر جهد ممكن ، وأفرغوا أكثر من عشرة أجولة من الأسمنت والرمال فى الشق ..

ولكنها لم تكف ..

ليس هذا فحسب ، ولكنها حتى لم تحدث أدنى أثر ، وكأن الأعماق قد ابتلعت كل هذا ، وتجشأته ، دون أن تصاب حتى بعسر الهضم ..

وهنا وقف الحاج (عوض) حائرًا ، أمام ذلك التحدّى ، الذى لم يواجه مثله فى حياته كلها ، ثم توصّل أخيرًا إلى فكرة جديدة ، فبدلاً من محاولة ردم الشق ، قام بتغطيته بألواح سميكة من الصلب ، وصب فوقها الأسمنت المسلّح ، وأخفى الشق تمامًا ..

وتنفس الحى كله الصعداء ، وقضى ليلة دافئة هانئة ، لأول مرة منذ زمن طويل ..

بل ثلاث ليال كاملة ..

ولكن فى الليلة الرابعة ، وبعد منتصف الليل بقليل ، ارتج الحى كله ، على نحو أصاب الجميع بالفزع ، فهرعوا خارج منازلهم ، هربًا مما تصوّروه زلزال عنيف ..

وكانت المفاجأة أكثر عنفًا ..

الحديد الذى يغطى الشق ، والأسمنت المسلح فوقه ، كلها تحطّمت ، طبقة بعد الأخرى ، وظهر الشق من تحتها ، وقد زاد اتساعه عشر سنتيمترات أخرى ..

أربعون سنتيمترًا أصبحت تفصل بداية الشارع عن نهايته ..

أربعون سنتيمترًا ، فيها كل الخوف ..

وكل الرعب ..

ولدقائق كاملة ، لا يدرى عددها إلا الله (سبحانه وتعالى) ، وقف الكل يحدّقون فى ذلك الشق الرهيب ، وقد راودتهم فكرة السعى للبحث عن سكن آخر ، على الرغم من أزمة المساكن الطاحنة ..

وعلى الرغم من تأخُر الوقت ، اجتمع كبار الحى مع بعضهم البعض يتباحثون بشأن الموقف ، الذى أعلن الحاج (عوض) عجزه عن إيجاد حل منطقى له ، ووعد باستشارة أولى الأمر ..

ولأنه يدرك عقم اللجوء إلى الحكومة ، المنشغلة طوال الوقت بحماية القادة وكبار الشخصيات فقط ، فقد اتجه الحاج (عوض) بتفكيره إلى ابن شقيقه الأصغر الدكتور (محمود) ، أستاذ الجيولوجيا بكلية العلوم ، والذى لا يمل الحديث دوماً عن الأرض وطبقاتها ، مما لا يستوعب منه الحاج (عوض) سوى أنها مثل البشر ، طبقات فوق طبقات ..

ولقد استقبل الدكتور (محمود) عمه (عوض) بكل الترحاب والتقدير ، فعلى الرغم من أن مظهر الأخير وأسلوبه ، وحتى نمط حديثه ، كلها تشف عن طبقته ، التى تتعارض حتمًا مع أستاذ جامعى له مكانته المرموقة مثل الأوّل ، إلا أن (محمود) لم ينس أبدًا أن نقود عمه هى التى ساعدته على إكمال تعليمه ، بعد رحيل والده ، وأنه لولاه لما أصبح ذلك الأستاذ الجامعى ، صاحب المؤلفات الشهيرة ، فى علم الجيولوجيا وطبقات الأرض ..

وفى اهتمام شديد ، استمع (محمود) إلى عمه (عوض) ، ودوّن بعض الأرقام فى ورقة أمامه ، قبل أن يسأله :

- ماذا عن الشوارع الموازية لشارعكم ؟!

سأله الحاج (عوض) فى حيرة :

- ماذا عنها ؟!

سأله بكل اهتمام :

- هل ظهرت فيه أية آثار مماثلة ؟!

لم يتردّد الحاج (عوض) لحظة واحدة ، وهو يجيب فى سرعة :

- مطلقًا .

تطلّع إليه (محمود) مندهشا ، فتابع موضحًا :

- كان هذا أول ما خطر ببالى ، عندما ظهر الشق ، ولكننى لم أجد أى امتداد له ، فى أى من الشوارع الأخرى .

سأله فى سرعة :

- وماذا عن جدران المنازل عند الجانبين .

هزّ الحاج (عوض) رأسه نفيًا ، مجيبًا :

- كلها سليمة .

تراجع الدكتور (محمود) فى مقعده ، وراح يفكّر بضع لحظات فى عمق ، ويحاول تطبيق ما لديه من بيانات على ما درسه طوال حياته ، عن الأرض وطبقاتها ، إلا أن المعطيات لم تتفق مع كل النتائج ، لذا فقد اعتدل ، قائلاً فى حزم :

ـ فليكن .. دعنا نلقى نظرة على ذلك الشق أوّلاً .

كان هذا ما يأمله الحاج (عوض) بالضبط ؛ لذا فقد اصطحب ابن شقيقه إلى سيارته الفاخرة ، وانطلق به فورًا إلى شارعهم ، وطوال الطريق لم يتوقّف عن إعادة سرد القصة كلها من أوّلها ، وكأنما يؤكد كل معلومة للدكتور (محمود) ، الذى استمع فى صبر وصمت ، حتى بلغا بداية الشارع ، فأوقف الحاج (عوض) سيارته ، وقال :

ـ لا يمكننا التقدُّم بالسيارة أكثر من هذا ؛ فذلك الشق يقطع الطريق كما أخبرتك .

غمغم الدكتور (محمود) ، وهو يرتجل من السيارة :

ـ بالتأكيد .

سار إلى جوار عمه ، وعقله ما زال يدرس الموقف ، ويعيد حساباته ، و ...

وفجأة ، استوقفهما أحد رجال الحاج (عوض) ، وهو يعدو لاهثًا مذعورًا ، وهاتفًا :

ـ الشق .. الشق يا (حاج) .

انعقد حاجبا الدكتور (محمود) فى توتر ، فى حين تساءل الحاج (عوض) فى شىء من الذعر :

ـ ماذا أصابه ؟! هل .. هل اتسع ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى قوة ، قبل أن يجيب بكل الرعب :

ـ بل .. اشتعل .

وتضاعفت دهشة الدكتور (محمود) وحيرته .. بشدة .

* * *

فى حيرة شديدة ، وقف الدكتور (محمود) ، مع عمه الحاج (عوض) ، وعدد من سكان الحى ، يحدقون فى ذلك الشق المتسع ، الذى يتصاعد منه دخان أسود ، فى كثافة عجيبة ..

كان دخانًا داكنًا ، له رائحة مخيفة ، يوحى بأن شيئًا فاسدًا يحترق هناك فى الأعماق ..

فى أعمق الأعماق ..

شىء نجس ..

عفن ..

شرير ..

وفى رعب شديد ، غمغم أحد السكان ، وهو يبتعد عن الشق :

ـ إنه الشيطان .. الشيطان نفسه .

رمقه الدكتور (محمود) بنظرة استنكار ، وعقله يدور ، بحثًا عن تفسير علمى منطقى ، لما يحدث أمامه ..

إنه أمام شق متسع عميق ، عجز الكل عن سبر غوره ، وتتصاعد منه الآن أدخنة كثيفة ، ذات رائحة مزعجة ..

ماذا يمكن أن يكون تفسير هذا ؟!

أهو شق يمتد حتى باطن الأرض ؟!

ربما هذا هو التفسير العلمى الوحيد ..

باطن الأرض ، حيث الحمم ، والغازات ، التى يمكن أن تصنع هذا الدخان الكثيف ، نفاذ الرائحة ..

ولكن ، أيمكن حدوث هذا علميًا ؟!

أيمكن أن يحدث شق ما ، فى قلب المدينة ، فيبلغ أعماق الأرض ، ويخترق كل طبقاتها ، حتى يبلغ طبقة الحمم ؟!

أيمكن هذا ؟!

راح عقله يَجِدّ ، ويدرس ، ويفكّر ، ويحلّل ، قبل أن يقاطعه عمه (عوض) ، متسائلاً :

ـ ماذا سنفعل ؟!

كان هذا هو السؤال الذى يخشاه بحق ؟!

ماذا سيفعلون ؟!

الكل شخصوا بأبصارهم وأفكارهم وآمالهم نحوه ، باعتباره أكثرهم علمًا ومعرفة ، فى حين أنه يجهل تمامًا كل ما ينبغى فعله ، فى موقف كهذا ..

موقف لم يمر به من قبل ..

أو يتصوَّر حتى مروره به من قبل ..

وربما الأفضل أن يجرى اتصاله بالمسئولين ..

أن يبلغهم مدى خطورة الأمر ، وحتمية سرعة إنجازه ..

نعم .. هذا هو أفضل ما يفعله ..

لم يكد عقله يستقر على الفكرة ، حتى قال فى شىء من الحماس :

ـ لابد وأن نبلغ المسئولين .

أدرك على الفور ، صدى الإحباط ، الذى ولَّدته عبارته فى وجوههم ونظراتهم ، من قبل حتى أن يقول عمه :

ـ المسئولون لا يفعلون شيئًا .

أجابه فى حماس :

ـ الأمر يتجاوز قدرات الأفراد .. إنه يحتاج إلى تدخُّل جهة عليا .

سأله أحد السكان :

ـ مثل من ؟!

جاء السؤال ليلطمه فى عنف ، ويدفعه إلى التساؤل أيضًا ..

نعم .. من يبلغ ، فى هذا الشأن ؟!

من ؟!

أهى الشرطة ؟!

أم الجيش ؟!

أم وزارة البيئة ؟!

أم حتى إدارة الحى ؟!

من المسئول عن مواجهة مثل هذا الموقف العسير العجيب ..

حار الجواب فى رأسه ، فهزَّه فى قوة ، وهو يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ أى مسئول !

تضاعفت الحيرة فى وجوههم ، قبل أن يندفع أحدهم ، مقترحًا فى حماس :

ـ فلنبلغ الشرطة ، ولتبحث هى عن الجهة المسئولة عن هذا .

استحسن الكل الاقتراح ، وأيدوه بصوت مرتفع ، باستثناء الحاج (عوض) ، الذى بدا متشككًا ، وهو يغمغم :

ـ فليكن ، ولكن يوم الحكومة بسنة .

كان هذا مخرجًا ، ارتاح الدكتور (محمود) للعثور عليه ، حتى يمكنه العودة إلى مكتبه ، ومطالعة مراجعه ، والبحث فيها عن حالة مماثلة مسجلة ، تشرح له ما حدث ، وتمنحه وسيلة التعامل معه ، وفق خبرات الآخرين ..

ولأنه لم يشأ أن يمضى ، دون أن يحدث تأثيرًا ما ، فقد أشار بيده فى حزم ، قائلاً :

ـ حتى تأتى الشرطة لتقوم بعملها ، سنضع كردونًا حول الشق ، ونمنع الكل من الاقتراب منه مؤقتًا .

تحمَّس الكل لأمره ، وأسرعوا يتعاونون ؛ لصنع حاجز بدائى ، منع الاقتراب من الشق ، فى حين ألقى الدكتور (محمود) خطبة عصماء ، خالية من أى مضمون ، قبل أن يحمله عمه فى سيارته ؛ لإعادته إلى الكلية ، وهو يهز رأسه ، قائلاً :

الشرطة لن تصنع شيئًا .

غمغم الدكتور (محمود) :

ـ إنهم المسئولون .

لوّح عمه بيده فى الهواء ، قائلاً :

ـ هذه مشكلتكم أيها المثقفون .. تنشغلون بأمور سطحية عن الوقائع .. كل ما يقلقكم هو المسئولية ، ومن سيتحملها .

غمغم الدكتور (محمود) فى حذر :

ـ هذا أمر طبيعى .

أجابه فى حدة :

ـ كلا بالطبع .. المهم هو حل المشكلة ، وليس البحث عمن تلقى عليه المسئولية .

غمغم الدكتور (محمود) فى عصبية :

ـ وكيف يمكن حلها ؟!

صاح عمه فى غضب :

ـ أتسألنى أنا ؟!

شعر (محمود) بخجل حقيقى ، مع عبارة عمه الأخيرة ، وأقسم فى أعمق أعماقه أن يجد الحل ، حتى ولو قضى ليلته كلها بحثًا .

وفى مكتبه ، جمع كل المراجع الممكنة ، وراح يبحث فيها عن الأسباب العلمية ، التى يمكن أن تؤدى إلى حدوث شق كهذا ، فى منطقة سكنية ..

بحث فى كل الكتب ..

والمراجع ..

وعبر شبكة الإنترنت ..

وجاءت النتائج كلها سلبية ..

الواقعة كما حدثت ، لا مثيل لها فى كل المراجع قط ..

فقد يظهر شق كهذا ، عقب زلزال عنيف ، أو بعد انفجار بركانى قوى ..

ولكن ليس تلقائيًا ..

ثم إنه ، فى كل الأحوال ، لا يمكن أن يمتدّ إلى هذا العمق .. العميق !

توقف طويلاً عند الكلمة ، وانتبه إلى أن كل معلوماته عن عمق ذلك الشق ، استقاها من تجارب شبان الحى ..

إنه لم يجر بنفسه تجربة علمية واحدة ، لكشف هذا ..

ولا تجربة ..

بسرعة ، بحث وسط معداته عما يصلح لهذا ، وانتقى مقياس عميق ، يستخدم فى الأخاديد ، وجهاز قياس صوتى ارتدادى ، وقرَّر أن يقيس بنفسه عمق الشق ..

لم يدر ، لماذا سرت فى جسده تلك القشعريرة الباردة كالثلج ، عندما راودته فكرة العودة إلى ذلك الشق ..

ولا لماذا شعر بكل هذا الخوف !!

ولكنه قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

واستقلّ سيارته هذه المرة ، عائدًا إلى ذلك الحى ، الذى يقيم فيه عمه (عوض) ..

كان يقترب من الحى ، وجسده كله ما زال يرتجف ، عندما ارتفع رنين هاتفه المحمول بغتة ، فانتفض جسده كله فى عنف ، وهو يلتقطه من جيبه ، قائلاً فى لهجة عصبية ، لم يستطع السيطرة عليها :

ـ نعم يا عمى .. أنا فى طريقى إليك ، وأمامى ..

قاطعه عمه (عوض) ، بصوت شديد الذعر والارتجاف :

ـ الأمور تطوَّرت بسرعة .. لقد عرفنا إلى أين يقود ذلك الشق .

سأله فى توتر :

ـ إلى أين ؟!

أتاه الجواب ليفجِّر فى أعماقه الدهشة ..

كل الدهشة ..

* * *

« عالم الجن ؟! »

هتف الدكتور (محمود) بالعبارة ، بكل استنكار الدنيا ، فتلفَّت الحاج (عوض) حوله فى توتر شديد ، وهو يشير إليه بالصمت ، هاتفا فى رعب :

ـ حذار .

صاح به فى غضب :

ـ مم ؟! ما تقوله لا ينطبق على أى علم فى الوجود يا عماه .. جان ماذا وكلام فارغ ماذا ؟!

هتف عمه فى ذعر :

ـ لا تكفر يا ولدى .. الجان مذكور فى القرآن .

صاح الدكتور (محمود) فى حدة :

ـ لا يعنى هذا أن ننسب إليهم كل ما نعجز عن فهمه .. هناك جان ، وهناك أيضًا علم ، ومعرفة ، وثقافة ، و ...

قاطعه عمه مرتجفًا :

ـ إنهم الجان هذه المرة .

هتف محنقًا :

ـ أى قول ..

قاطعه عمه ، قبل أن يكمل هتافه :

ـ ولدينا شاهد على هذا .

توقَّف الدكتور (محمود) ، ليهتف فى مزيج من الدهشة والغضب :

ـ شاهد .

أمسك عمه ذراعه ، وجذبه إلى حارة جانبية ، قريبة من ذلك الشق حيث التف الناس فى دائرة كبيرة ، انفرطت فور قدومهما ، فرأى فى وسطها شاب نحيل ، شاحب إلى درجة تقارب الموت ، ويرتجف بشدة على مقعد خشبى ، وهو يهتف :

ـ لقد رأيته .. رأيته بنفسى .

أمسك الدكتور (محمود) كتفيه ، وسأله بمنتهى الصرامة :

ـ ما الذى رأيته ؟!

اتسعت عينا الشاب فى رعب هائل ، يؤكِّد أنه عاش بالفعل تجربة قاسية ، وارتجف صوته على نحو لم يحدث من قبل ، وهو يجيب :

ـ الجنى .. لقد رأيته بنفسى .. لقد صعد من الشق ، واختطف صديقه (هيثم) .. الجنى خطفه ، وعاد به إلى القاع .

قالها ، وانهار تمامًا ، وراح يبكى فى هستيريا ، تاركًا خلفه قنبلة من الدهشة والحيرة ..

قنبلة رهيبة ..

بلا حدود .

* * *

2ـ الجنـى ..

حدَّق ضابط الشرطة فى وجوه الواقفين أمامه ، فى مزيج من الدهشة والقلق والاستنكار ، قبل أن يهز رأسه فى قوة ، ويلتفت إلى ذلك الشق ، قائلاً فى عصبية :

ـ هل تتوقعون أن أصدق قصة سخيفة كهذا ؟!

غمغم الدكتور (محمود) :

ـ هناك شاهد ، و ...

قاطعه الضابط فى حدة :

ـ حتى لو ألف شاهد .

ثم لوَّح بيده فى غضب ، مضيفًا :

ـ ما من عاقل يمكن أن يصدق قصة كهذه .. جنى يخرج من باطن الأرض ، ويختطف شابًا ، ثم يعود به إلى الأعماق !! أية حماقة هذه ؟!

غمغم الدكتور (محمود) فى إصرار :

ـ هناك شاهد .

صرخ الضابط :

ـ أى شاهد ؟! هل ستكذب عينك ، وتصدق مثل هذه الحماقات يا رجل ؟! انظر إلى ذلك الشق الذى تتحدَّث عنه .. إنه لن يتسع حتمًا لجسد شاب ناضج ، فكيف بالله عليك يخرج منه جنى ، ويغيب فيه شخص ما .

بدت الحيرة على وجه الدكتور (محمود) ، وهو يحدِّق فى الشق بدوره ، ويطرح على نفسه الأسئلة ذاتها ، فى حين قال الحاج (عوض) فى توتر :

ـ كيف تفسِّر اختفاء الشاب إذن ؟!

التقط الضابط نفسًا عميقًا ، وألقى نظرة أخرى على الشق ، ثم أجاب فى حدة :

ـ جريمة قتل .

ونقل بصره إلى الشاب الآخر ، الذى شاهد ما حدث ، وأضاف فى صرامة :

ـ وقصة فى منتهى الحماقة ؛ لتغطية هذا .

امتقع وجه الشاهد ، وهو يهتف :

ـ أقسم بالله ..

قاطعه الضابط فى غضب :

ـ إياك أن تقسم .

التقط الدكتور (محمود) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ فى هذه الحالة يبقى لدينا سؤال شديد الأهمية والخطورة .. أين القتيل .

أشار الضابط إلى الشق ، قائلاً فى حزم :

ـ هنا .

هتف الحاج (عوض) :

ـ ولكنك قلت منذ لحظات ..

قاطعه الضابط فى عصبية :

ـ يمكنك أن تحشرها فيها ؛ فالموتى لا يقاومون ، ولا يشعرون بالألم .

امتقع وجه الشاهد أكثر ، وهو يهتف :

ـ أتقصد أننى قتلته ، وحشرت جثته فى الشق .

التمعت عينا الضابط ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أنت قلتها .

هتف الشاب :

ـ ومتى فعلت هذا ؟!

انعقد حاجبا الضابط ، وبدا تساؤله على ملامحه ؛ فتابع الشاهد فى توتر :

ـ الناس كانت تسير فى الشارع ، ولم نبق وحدنا سوى لحظات قليلة ، فمتى قتلته ، وحشرت جثته فى الشق ، وحتى لو فعلت ، فأين هو ؟!

بدت الحيرة أكثر وضوحًا ، على وجه الضابط ، والكل يتطلَّع إليه ، فى انتظار جواب ، ولكنه عجز عن منحهم أية أجوبة ، فهتف بجنوده فى عصبية :

ـ ألقوا القبض عليه .

انقض الجنود على الشاهد ، وكأنما وجدوها فرصة لإنهاء الموقف ، والانصراف بعيدًا عن ذلك الشق ، الذى يثير فى أعماقهم رعب مبهم ، منذ وصلوا إلى الحى ..

وفى ذعر ، صرخ الشاهد :

ـ لم أقتله .. أقسم أننى لم أفعل .

صاح به الضابط :

ـ قلت لك : لا تقسم .

اقتاده الجنود إلى سيارة الشرطة ، والدكتور (محمود) يقول في غضب متوتر :

ـ أنت مخطئ .

قال الضابط في حدة :

ـ ربما .

وألقى نظرة عصبية أخرى على الشق ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن هذا هو المنطق الوحيد هنا .

حاول سكان الحى إقناعه بالعكس ، إلا أنه واصل إصراره على اعتقال الشاهد ، وانصرف مع رجاله من الحى كله ، فهتف الحاج (عوض) فى غضب :

ـ لم يهتم حتى بوجود الشق .

غمغم الدكتور (محمود) :

ـ أو ربما شعر بالخوف منه .

أجابه أحد السكان مرتجفًا :

ـ كلنا هذا الرجل .

رمقه الدكتور (محمود) بنظرة جانبية ، ثم أدار عينيه إلى الأفق ، حيث راحت الشمس تختفى ، وقال :

ـ لو أن الشرطة تجاهلت الأمر ، فلا ينبغى أن نفعل نحن هذا .

سأله عمه :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ؟! لقد حاولت سده ، ولكن هيهات .

أشار بيده ، قائلاً :

ـ هذا لأننا نفتقر إلى أهم سلاح فى مواجهته .

تطلَّع إليه الكل فى تساؤل ، فتابع فى حزم :

ـ المعلومات .

كرَّر عمه فى حيرة :

ـ المعلومات ؟!

أجابه الدكتور (محمود) فى حماس :

ـ بالطبع .. سأعود إلى مكتبى ، وسأحضر بعض المعدات المتقدمة ، وأجهزة التصوير المتطوِّرة ، وسنحاول أن نعرف أولاً ماهية ذلك الشق ، وبعدها سنعرف تلقائيًا ، كيف نتعامل معه .

سأله عمه فى قلق :

ـ ومتى ستفعل هذا ؟!

كان الظلام يزحف بالفعل ، فقال فى حزم :

ـ مع أول ضوء من صباح الغد .

التقط عمه (عوض) نفسًا عميقًا ، وأجاب بمنتهى الحزم :

ـ لست أظننا نستطيع الانتظار إلى الصباح ..

تردَّد الدكتور (محمود) لحظات ، فأضاف عمه فى حزم أكثر :

ـ سأرسل سائقًا معك ، لإحضار كل ما يلزمك ، ولتبدأ عملك الليلة .. ما زال الليل طويلاً .

لم يكن الدكتور (محمود) يرغب فى الاقتراب مجرد الاقتراب من ذلك الشق ، بعد هبوط الليل ، إلا أنه لم يكن يستطيع معارضة عمه وولى نعمته أيضًا ، لذا فقد وافقه ، وعاد مع سائق من الحى بالفعل ، لإحضار معداته ، فى حين أحاط الحاج (عوض) الشق برجاله ، مع إضاءة قوية ، خشية أن يتكرَّر ما حدث ، وقد وقر فى نفوسهم جميعًا ، أن ذلك الشق يقود بالفعل إلى عالم الجان فى الأعماق ..

ولقد أحضر الدكتور (محمود) الكثير من المعدات بالفعل ، مع آلة تصوير أعماق حديثة ، وعاد إلى الشق ، وقد أسدل الليل أستاره ، وبدا الأمر كله مخيفاً أكثر ..

وفى قلق حذر ، التف الكل حوله ، يراقبون ما ينصبه من معدات ، على جانبى الشق ، وأثار انتباههم بشدة ما بدا أشبه

بونش صغير ، له بكرة ضخمة من الأسلاك ، ثبت الدكتور (محمود) آلة تصوير الأعماق فى نهايتها ، وقال وهو يشرح ما يفعله ، منتقيًا أبسط الكلمات ، ومتحاشيًا أية مصطلحات علمية معقدة :

ـ سننزل الكاميرا فى الشق ، والكابل سينقل لنا صورة ما يحدث هناك .

غمغم الحاج (عوض) :

ـ فى هذا الظلام ؟!

أجابه الدكتور (محمود) :

ـ هناك مصباح فى قمتها .. ثم إنها ..

كان يريد أن يضيف أنها مجهزة بالأشعة دون الحمراء ؛ للرؤية الليلية ، إلا أنه خشى أن أحداً لن يفهم ، فصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ لا تقلق نفسك يا عمى .. ستقوم بعملها على خير وجه .

تمتم الحاج (عوض) :

ـ أتعشَّم هذا .

تعلَّقت العيون كلها بالدكتور (محمود) ، وهو ينزل الكاميرا فى أعماق الشق ، ثم يشعل شاشة صغيرة أمامه ، نقلت ما تلتقطه أثناء رحلتها ..

فى البداية ، بدا كل شىء عاديًا جدًا ..

مجرد طبقات أرضية ، متراصة على النحو نفسه ، الذى درسه ويدرِّسه لطلبته ، و ...

وفجأة ، ارتجت الكاميرا فى عنف ، وارتجت معها الصورة على الشاشة ، واصطبغت كلها بلون أحمر زاه ، ثم عاد كل شىء إلى طبيعته ..

استغرق هذا ثانية واحدة ، ولكنه أثار فى أعماق الكل رعبًا ما بعده رعب ..

وبكل رعبه ، هتف الحاج (عوض) :

ـ أرأيت ؟!

هتف الدكتور (محمود) فى حدة :

ـ وماذا رأيت ؟! عطل لحظى فى الكاميرا .. مجرد عطل .. لقد عادت للعمل فورًا .. أليس كذلك ؟!

لم يحاول أحدهم إجابته ، وكلهم يحدِّقون فى الشاشة ، فأضاف فى حدة أكثر :

ـ دعونا نطرح هذه الخزعبلات جانبًا ، حتى لا نوهم أنفسنا بما لا يوجد فعليًا .

مرة أخرى ، لم يجب أحدهم بحرف واحد ، وظلوا يحدِّقون فى تلك الشاشة ، والكاميرا تغوص فى الأعماق ..

وتغوص ..

وتغوص ..

وفجأة ، ارتجت مرة أخرى ..

واصطبغ كل شىء بذلك اللون الأحمر القانى ..

وفى هذه المرة ، انطلقت من حلوق الجميع شهقة رعب هائلة ..

حتى حلق الدكتور (محمود) نفسه ..

فما ظهر على الشاشة ، فى اللحظة التالية ، كان رهيبًا ..

رهيبًا بحق .

* * *

منتصف الليل بالضبط ..

جسد الدكتور (محمود) ما زال يرتجف ويرتجف ، كلما أعاد مشاهدة ذلك الشريط ، الذى سجلته كاميرا الأعماق ، داخل ذلك الشق ..

الكل رأى ما رآه ..

والكل أصيب بالفزع والرعب ..

أما هو ، فأصابه الذهول ..

فما ظهر على الشاشة ، وسجّله شريط الفيديو ، لم يكن أمرًا عاديًا أو مألوفًا ، أو حتى متوقعًا ..

لا داخل ذلك الشق ، ولا حتى خارجه ..

فخلال غوصها فى الأعماق ، مرّت أمام الكاميرا ، وللمحة استغرقت نصف ثانية على الأكثر ، أنياب ..

نعم .. أنياب حادة ، مسنونة ، مشرشرة ، أشبه بأسنان سمكة القرش ، تحيط بها بشرة حمراء كالدم ..

وعلى الرغم من أن المشهد لم يستغرق سوى لمحة ، فقد سقطت القلوب بين الأقدام ، وشاع الرعب فى كل من شاهده ..

وفور ظهوره على الشاشة ، انطلقت الصرخات من الحلوق ، وراح الكل يعدون فى كل مكان ، مرددين :

ـ الجنى .. الجنى ..

ولم تمض ثوان ، حتى بقى (محمود) وعمه (عوض) وحدهما عند الشق ، يحدّقان فى الشاشة ، ثم فى وجهى بعضهما البعض ، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ..

أو حتى يجرؤ على هذا ..

وبدون تبادل كلمة واحدة ، انفصل كل منهما عن الآخر ، فعاد الحاج (عوض) بخطوات سريعة إلى منزله ، واستقل الدكتور (محمود) السيارة ، بعد أن لملم أجهزته ، وانطلق عائدًا إلى مكتبه ..

وهناك ، فى مكتبه أعاد مشاهدة الشريط مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

شاهده مائة مرة على الأقل ، قبل أن يثبت المشهد ، ويقترب من الشاشة ، حتى كاد يلتصق بها ، محاولاً التيقن مما شاهده ..

نعم .. إنها أنياب ..

أنياب كائن ما ..

أو حيوان ما ..

تراجع فى عصبية ، والتقط أحد مراجعه ، وراح يبحث عن أى كائن يمكن أن يحيا فى أعماق الأرض ..

كائن له تلك الأنياب ..

أو حتى كائن عادى ، ربما تحوّر من الزمن ، ونبتت له تلك الأنياب الحادة المخيفة ..

ولكن كل مراجعه لم تشر إلى ذلك الشيء قط ..

لا توجد كائنات على هذا النحو ، تحيا فى أعماق الأرض ..

لا توجد أية كائنات طبيعية هناك ..

شعر بالانفعال والانبهار ، عندما بلغ هذه النقطة ، وبدا له أنه أمام كشف علمى بالغ الخطورة ، وأن تلك المراجع ، التى تملأ مكتبه ، لن تلبث أن تضم اسمه ، باعتباره مكتشف حياة جديدة ، تحت سطح الأرض ..

ويا له من كشف !!

إنه لن يغيِّر تصنيف الممالك البيولوجية فحسب ، ولكنه سيغيِّر أيضًا مفهوم الحياة ، التى يبحث عنها العلماء ، فى الكواكب الأخرى ..

عشرات الكواكب تم رصدها ، ولم تظهر أية حيوات عاقلة على سطحها ، فاستبعد العلماء وجود الحياة عليها ..

ولكن كشف حياة أرضية ، تحيا فى أعماق الصخور ، سيعيد النظر حتمًا فى تلك الأمور ، وسيدفعهم لإعادة البحث عن مخلوقات حية ، فى كواكب تصوَّروا خلوها منهم ..

وبكل انفعاله ، راح يعيد دراسة المشهد ، على ضوء تلك الفكرة المبهرة الجديدة ..

إنه كائن أحمر البشرة ، مما يوحى بأن قشرته الخارجية ملتهبة ، أو أن لديه مصدرًا قويًا للأكسجين هناك ، فى الأعماق ..

راح يجرى حساباته ، ودراساته ، ويحاول استنباط التركيبة البيولوجية لذلك الكائن ، وفكر جديًا فى الاستعانة بواحد من زملائه ، فى قسم البيولوجيا ، و ...

وفجأة ، اقتحم عمه (عوض) مكتبه ..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف صباحًا ، مما أفزعه ، وأدهشه ، فهتف فى توتر بالغ :

ـ عمى ؟! كيف سمح لك الأمن بـ ...

قاطعه عمه فى عصبية :

ـ ولماذا تعمل أنت حتى هذه الساعة ؟!

أشار (محمود) إلى الشاشة ، قائلاً :

ـ كنت أراجع الشريط .

مال عمه نحوه ، وقال فى انفعال ، وكل حروف كلماته ترتجف :

ـ هذا نفس ما منعنى من النوم .

ثم مال أكثر ، وهمس فى حزم منفعل :

ـ لقد وجدت الحل .

وعلى الرغم من معرفته بما يعنيه ، سأله الدكتور (محمود) :

ـ حل ماذا ؟!

تلفَّت عمه حوله ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد ، وهمس بكل التوتر والانفعال :

ـ سأستخدم الديناميت .

تراجع الدكتور (محمود) ، وحدَّق فيه بمنتهى الدهشة ، فتابع بكل الانفعال :

ـ سأنسف ذلك الشيء هناك .

حاول (محمود) لثوان استيعاب الموقف ، إلا أنه بدا له شديد التهوّر والحماقة ، وقادر على نسف ذلك الكشف ، الذى حلم بأن يضعه فى مصاف العلماء المعدودين فى العصر الحديث ، فهتف مستنكرًا :

ـ هل جننت ؟!

تراجع عمه (عوض) مندهشًا وتطلَّع إليه بنظرة منكسرة معاتبة ، مما دفعه إلى أن يستدرك فى سرعة :

ـ معذرة يا عماه ، ولكن الفكرة يمكن أن تسبب كارثة .

غمغم عمه :

ـ وما الذى نحن فيه الآن ؟!

أجابه (محمود) فى سرعة :

ـ إننى أتحدَّث عن كارثة حقيقية .. تفجير تحت الأرض ، فى منطقة سكنية .. هل تدرك ما الذى يمكن أن يؤدى إليه هذا .

أجابه عمه فى عصبية :

ـ سيقتل ذلك الشيء على الأقل .

هتف (محمود) :

ـ وربما يتسبَّب فى تصدع نصف منازل الحى أيضًا .

اتسعت عينا الحاج (عوض) فى ارتياع ، وترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه ، وهو يغمغم :

ـ لم يخطر هذا الاحتمال ببالى قط .

واصل (محمود) فى حزم :

ـ إننا لا ندرى حتى أين يمتد ذلك الشق بالضبط ، فماذا لو أحدثنا التفجير فى عمقه ، ففوجئنا بالحى كله يغوص فى أعماق الأرض .

اتسعت عينا الحاج (عوض) أكثر ، وهتف فى عصبية بالغة ، وتوتر بلا حدود :

ـ هل سنقف ساكنين إذن ؟!

لم يكن لدى (محمود) جواب لهذا ، إلا أنه اندفع قائلاً فى حماس :

ـ بل سنواصل عملنا .

فسأله عمه فى حيرة :

ـ أى عمل ؟!

أجابه بكل حماسه :

ـ سنعيد الأجهزة والأدوات ، ونضع الكاميرا مرة أخرى فى الشق .

بدت الحيرة على وجه الحاج (عوض) ، وهو يغمغم :

ـ ولماذا ؟!

لم يكن باستطاعة (محمود) أن يخبره عن دوافعه الحقيقية ، لذا فقد مال نحوه ، وكأنه يخبره بسر خطير ، وهو يقول :

ـ نحتاج إلى صور أكثر وضوحًا ؛ حتى يمكننا إقناع المسئولين بالتدخل .

حدَّق فيه الحاج (عوض) بضع لحظات ، وكأنما لم يقنعه هذا الدافع ، وتمتم فى شىء من الإحباط :

ـ المسئولون .

أجابه (محمود) فى سرعة :

ـ لن يمكننا أن نتولى الأمر وحدنا .

حاول الحاج (عوض) أن يهضم الموقف ، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ فليكن .

اعتدل الدكتور (محمود) ، وهو يشعر بمنتهى الارتياح ، لنجاح خطته ، ولم تمض دقائق ، حتى كان ينطلق مع عمه ، فى سيارة هذا الأخير ، عائدًا إلى حيث الشق ..

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا ، وخلا الشارع تمامًا من المارة ، الذين لم يخشوا الاقتراب من الشق فحسب ، وإنما خشوا حتى فتح نوافذهم ، فقبعوا فى بيوتهم ، وخفضوا أصواتهم ، واكتفوا باختلاس النظر من خلف شيش النوافذ ، فى خوف مذعور ، وهم يتعجلون شروق الشمس ، حتى ينتهى الليل ، وما يصحبه من خوف وقلق وذعر ..

والواقع أن الشق كان رهيبًا بالفعل ، فى تلك الفترة ، فعلى الرغم من الظلام المحيط به ، كانت تنبعث منه إضاءة حمراء

خافتة ، مع تلك الأبخرة السوداء ، وكأنه يمتد بالفعل إلى قلب الجحيم ..

ولم يستطع الحاج (عوض) كتمان انفعاله ، ولا منع جسده من الارتجاف ، وهو يقترب منه ، مغمغمًا :

ـ ألن ينتهى هذا الكابوس ؟!

غمغم الدكتور (محمود) بدوره :

ـ من يدرى ؟! ربما يحمل شيئًا من الخير .

كان يشير إلى تلك الشهرة ، التى يحلم بها ، والتى يمكن أن يحققها له هذا الشق ، فى كل المحافل العلمية ، إلا أن الحاج (عوض) لم يستوعب المنطق ، فهتف مستنكرًا :

ـ خير ؟! من هذا ؟!

غمغم الدكتور (محمود) ، وهو يعيد رص وتركيب أجهزته :

ـ من يدرى ؟!

ابتعد الحاج (عوض) ، واكتفى بمراقبته ، وهو يوصل أجهزته ، ويبدأ خفض آلة تصوير الأعماق فى الشق ..

والواقع أن الدكتور (محمود) لم يكن يستطيع كتمان لهفته أيضًا ، وهو يراقب الشاشة فى شغف ، متمنيًا أن يحصل على صورة جديدة ، أكثر وضوحًا وتأكيدًا ..

لم يكن ، بحكم طبيعته العلمية ، يؤمن بفكرة الجنى والعفاريت ، ووجودهما فى باطن الأرض ، وإنما كان واثقاً من أنه سيعثر هناك على كائن ما ..

كائن لم يعرفه البشر من قبل قط ..

كائن سيمنحه شهرة واسعة ، هائلة ، بل وربما يمنحه جائزة (نوبل) فى العلوم أيضًا ..

ومع انفعال كل منهما بعالمه ، الذى يدور فى أعماقه ، تعلق بصرهما بشاشة الجهاز ، التى تنقل ما تسجله الكاميرا ..

وراحت الكاميرا تغوص وتغوص ، وتنقل طبقات الأرض ، واحدة بعد الأخرى ، و ...

وفجأة ، تحرك جسم ضخم أمامها ..

تحرك لحظة ، ثم اختفى بسرعة ، بزاوية توحى بأنه فى طريقه إلى أعلى الشق ..

وبكل رعبه ، صرخ الحاج (عوض) :

ـ سيهاجمنا ..

لم يكد يتم صرخته ، حتى وثب ذلك الجسم من الشق ، الذى اتسع أكثر وأكثر ، وسقط عند قدمى الحاج (عوض) مباشرة ..

واتسعت عينا الرجلين عن آخرهما ..

وحدّقا فى ذلك الجسم بذهول ..

بمنتهى الذهول .

* * *

3ـ بالعقـــل ..

ساد الوجوم كل الحاضرين من سكان الحى ، وهم يحدّقون ، فى مزيج من الرعب والذهول ، فى تلك الكتلة من اللحم والشحم والدم ، التى وثبت عبر الشق إلى الشارع ..

كانت كتلة ممزقة ، مهترئة ، توحى بأنها بقايا شىء ما ..

أو شخص ما ..

وفى تردُّد وهلع ، غمغم أحد الشباب :

ـ إنه .. إنه (فكرى) ..

كان (فكرى) هذا ، هو الشاب نفسه ، الذى قيل أن المخلوق تحت الأرض قد اختطفه ، فى ساعة سابقة من ذلك اليوم ، لذا فقد التفت الكل إلى الشاب ، الذى نطق العبارة ، فى دهشة بالغة ، قبل أن يقول الدكتور (محمود) فى عصبية :

ـ دعونا لا نقفز إلى استنتاجات بعيدة ، بهذه السرعة ..

ارتجف صوت الشاب أكثر ، وهو يقول :

ـ ليس استنتاجًا .

وبسبّابة أكثر ارتجافًا من صوته ، أشار إلى جزء من كتلة اللحم والدم ، مكملاً :

ـ هذا يخص (فكرى) .

اتجهت الأبصار كلها إلى حيث يشير ، وانتفضت الأجساد كلها فى رعب ما بعده رعب ..

فهناك ، فى قلب كتلة اللحم والدم ، كان يطلّ إصبع وسطى ، به خاتم فضى مميَّز ..

خاتم ، عرفه الكل فورًا ..

خاتم (فكرى) ..

وانطلقت الصرخات من الحلوق ، وهتف الحاج (عوض) ، بكل الرعب والتوتر :

ـ إنه الجنى .. الجنى قتل (فكرى) ، و ...

قاطعه صوت صارم غاضب :

ـ خطأ .

استدار الكل إلى الشيخ (حسن) ، خطيب الجامع ، الذى بدا شديد الغضب ، وهو يقول :

ـ الجن ليسوا مسوخًا أو وحوشًا أو شياطين .. إنهم قوم مثلنا .. فيهم المؤمن والكافر ، والطيب والشرير ، وليس كل ما نعجز عن فهمه جنى .

هتف الدكتور (محمود) :

ـ إننى أتفق معك تمامًا فى هذا يا شيخ (حسن) .. إننا نواجه مخلوقًا ما .. كائنًا لم نر مثله من قبل ، ولكنه ليس جنى حتمًا .

أضاف الحاج (عوض) فى توتر :

ـ أو أننا لا نستطيع الجزم بهذا .

زفر الدكتور (محمود) ، قائلاً :

ـ فليكن .. المهم أننا ، فى كل الأحوال ، أمام ظاهرة غريبة ، تستحق البحث والدراسة .

أضاف الشيخ (حسن) :

ـ وتحتاج إلى إبلاغ الشرطة أيضًا .

انتفض الحاج (عوض) ، هاتفًا :

ـ الشرطة ؟!

واجهه الشيخ (حسن) ، قائلاً فى حزم :

ـ ولماذا نطقتها بكل هذا الاستنكار يا حاج (عوض) ؟! ما أمامنا هو ، على الأرجح ، بقايا جسد (فكرى) ، الذى أبلغنا باختطافه ، ومن الطبيعى أن نبلغ الشرطة والطب الشرعى عما حدث هنا .

بدا التردُّد على وجه الحاج (عوض) ، فقال الدكتور (محمود) فى عصبية واضحة :

ـ ليس الآن على الأقل .

التفت إليه الشيخ (حسن) ، متسائلاً :

ـ ولِمَ لا ؟!

لم يستطع أن يخبره أن هذا يتعارض مع طموحه وآماله المستقبلية ، وفرصته فى سبر أغوار ذلك الشق ، وتسجيل المخلوق الجديد ؛ إذ أن وصول رجال الشرطة سيوقف أبحاثه حتمًا ..

وبسرعة ، بحث عقله عن جواب ، وقال :

ـ الشرطة ستزيد من تعقيد الموقف ، قبل أن نفهم ما يحدث .

هتف الحاج (عوض) فى حماس :

ـ هذا رأيى أيضًا .

نقل الشيخ (حسن) بصره بينهما فى استنكار ، وقال فى صراحة :

ـ أى قول هذا .. لا يصح إلا الصحيح .. هناك عمل غير مفهوم ، ولابد وأن نبلغ الشرطة .

كان الدكتور (محمود) يعرف الشيخ (حسن) جيدًا ، ويثق تمامًا فى أنه لن يتراجع عن إبلاغ الشرطة قط ، لذا فقد عقد ساعديه أمام صدره ، وقال فى حزم :

ـ فليكن .. أبلغ الشرطة .

انتفض الحاج (عوض) ، وهتف :

ـ ولكن كيف ..

مال الدكتور (محمود) على أذنه ، يقاطعه هامسًا :

ـ الشرطة لن تصدقه فورًا ، وقبل أن تقتنع بروايته ، وتصل إلى هنا ، سنكون قد أنجزنا عملنا .

لم يكن الحاج (عوض) يدرى ، أى عمل هذا بالضبط ، إلا أنه وافق ابن شقيقه ، وقال :

ـ فليكن .. أبلغ الشرطة يا شيخ (حسن) .

مطَّ الشيخ (حسن) شفتيه ، وكأنما لا يروق له الموقف كله ، ثم استدار متجهاً نحو أقرب هاتف ، فى حين أسرع الدكتور (محمود) يكمل رحلة آلة التصوير ، فى عمق الشق ، وعمه (عوض) يقول فى عصبية :

ـ ما الذى تتعشَّم الوصول إليه بالضبط ؟!

أجابه الدكتور (محمود) فى حماس :

ـ ما يكمن هناك .

تلفَّت الحاج (عوض) حوله ، وألقى نظرة عصبية على كتلة اللحم والدم ، قبل أن يهمس :

ـ إنه ليس جنيًا .

هزَّ الدكتور (محمود) رأسه نفيًا فى قوة ، قائلاً :

ـ ليس كذلك !

لهث الحاج (عوض) ، وكأنما بذل جهدًا خرافيًّا ، وقال :

ـ هو عفريت إذن .

رمقه (محمود) بنظرة مستنكرة ، ثم قرَّر أن يدخر وقت المناقشة العقيمة ، وركز اهتمامه على متابعة الكاميرا ..

وفجأة ، ارتجت الكاميرا فى قوة ، وأظلمت شاشتها تمامًا ، وانجذبت فى عنف ، وكأنما يجذبها شىء ما من أسفل ..

وبكل لهفته ، وثب الدكتور (محمود) يمسك سلك الكاميرا ، الذى راح ينسحب بسرعة داخل الشق ..

وشعر بألم شديد فى عضلاته ..

فهناك قوة كبيرة ، كانت تجذب الكاميرا من أسفل ..

قوة تفوق قوته عشر مرات على الأقل ، حتى أنها راحت تجذب جسده كله نحو الشق ..

وعلى الرغم من هذا ، لم يتخلَّ (محمود) عن السلك ، وظل متشبثًا به فى استماتة ، حتى إن عمه جذبه من ساقه ، صارخًا :

ـ اتركه .. اتركه يذهب إلى الجحيم بالله عليك .

ولكن الدكتور (محمود) لم يستطع التخلّى عن حلمه بهذه السهولة ..

وبمنتهى القوة ، راح شىء ما يجذبه نحو الشق أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وصرخ عمه مرة أخرى ، وهو يجذبه بكل قوته :

ـ اتركه .

اندفع بعض شبان الحى ، يمسكون الدكتور (محمود) من ساقيه ، ويحاولون جذبه بعيدًا ، وذلك الشىء يجذبه نحو الشق ..

وكان مشهدًا عجيبًا بحق ..

الرجل متشبث بالسلك ، الذى يجذبه نحو الجحيم ، وخمسة أو ستة رجال يجذبونه ، ولكنهم غير قادرين على مواجهة ذلك الشىء

فى الأعماق ..

وهو لم يحاول التخلّى عن السلك قط ..

حتى بلغت يداه الشق نفسه ..

عندئذ ، شعر بلفح نيران رهيبة ، لم تحتمل أصابعه وهجه ، فأفلت السلك مضطرًا ..

وفور إفلاته ، انسحب السلك ، مع شاشة الرصد ، وكل الأجهزة المتصلة بها إلى الأعماق ..

وصرخ الدكتور (محمود) فى يأس :

ـ لا .. ليس هكذا .

اختفت الأجهزة المتطوِّرة كلها فى الشق ، الذى انبعث منه صوت مخيف ، أشبه بفحيح ألف ألف أفعى ، ثم ارتفع منه وهج برتقالى ممتزج بالحمرة ، كما لو أن النيران قد تأجَّجت فجأة ، فى أعمق أعماقه .. وتراجع الكل فى هلع ..

وهتف الحاج (عوض) :

ـ إنه جنى ولا شك .

ظهر الشيخ (حسن) مرة أخرى ، وهو يهتف :

ـ ليس جنيًا .. لا تقحموا جهلكم فيما لا تعلمون .

نهض الدكتور (محمود) ، وهو يلهث ، قائلاً :

ـ كل ما نستطيع قوله ، هو أننا نواجه شيئًا لا قبل لنا به .

قال الشيخ (حسن) فى حزم :

ـ ولكنه ليس جنيًا .

زفر الدكتور (محمود) فى يأس ، ثم سأله :

ـ هل أبلغت الشرطة ؟!

أجابه الشيخ (حسن) فى سرعة :

ـ بالطبع .

سأله الدكتور (محمود) ، فى شىء من العصبية :

ـ وهل صدقوك ؟!

قبل أن يجيبه الشيخ (حسن) ، ارتفع صوت سارينة سيارة شرطة تقترب ، فابتسم الشيخ (حسن) ، دون أن يجيب ، فى حين هتف الحاج (عوض) بكل الدهشة :

ـ بهذه السرعة .

أومأ الشيخ (حسن) برأسه ، فى شىء من الزهو ، وتوقفت سيارة الشرطة أمامهم مباشرة ، وهبط منها ضابط المباحث ، قائلاً :

ـ أين ذلك الشىء ، الذى أخبرتنا عنه يا شيخ (حسن) .

أشار الشيخ (حسن) إلى كتلة اللحم والدم ، قائلاً :

ـ ها هو ذا .

حدّق ضابط المباحث ، وكل أفراد الطاقم المصاحب له ، فى تلك الكتلة ، بمزيج من الدهشة والاشمئزاز ، قبل أن يهتف هو فى استنكار :

ـ هل تريد إقناعى أن كتلة اللحم المفرى هذه هى ذلك الشاب ، الذى أبلغتم باختطافه ، منذ بضع ساعات ؟!

أشار الشيخ (حسن) إلى الإصبع ذى الخاتم ، قائلاً :

ـ نعم .. إنه هو .

حدّق ضابط المباحث فى الإصبع بذهول ، ثم أشاح بوجهه ، ربما ليخفى اشمئزازه ، وهو يغمغم :

ـ فليكن .. خبير البصمات سيحسم هذا .

هتف الحاج (عوض) :

ـ الجن قتلوه .

رمقه ضابط المباحث بنظرة مستنكرة ، ورماه الشيخ (حسن)

بنظرة غاضبة ، وابتسم أفراد الطاقم الأمنى ، فى شىء من السخرية ، و ...

وفجأة ، ارتجت الأرض فى قوة ..

ثم حدث ذلك الأمر الرهيب ..

الرهيب للغاية .

* * *

فجأة ، انطلق عمود من النار ، من قلب الأرض ..

لسان من اللهب ، صعد من الشق ، وارتفع فى خط مستقيم ، أشبه بضوء شمعة هائلة ، ليتجاوز أسطح العمارات ، ويعلو فى قلب السماء ..

وللحظة ، أضىء الحى كله بضوء أحمر رهيب ..

ضوء له وهج أشبه بالموت ..

أو هو الموت نفسه ..

ضوء غمر كل شىء ..

وكل شخص ..

ومع انطلاق عمود اللهب ، شهق ضابط المباحث ..

وصرخ رجال القوة المصاحبة له ..

وانهار كل الموجودين من سكان الحى ..

واتسعت عينا الدكتور (محمود) ..

وسقط الحاج (عوض) على ركبتيه ..

وبسمل الشيخ (حسن) وحوقل ..

كل هذا فى لحظة واحدة ..

لحظة عاد بعدها اللهب إلى قلب الأرض ..

إلى أعماق الشق ..

وبكل رعب الدنيا ، راح الكل يحدّق فى ذلك الشق ، حتى ضابط المباحث نفسه ، الذى كان أوّل من كسر صمت الرعب ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل !

هتف الحاج (عوض) فى انفعال :

ـ أرأيت بنفسك .

ظلّ ضابط المباحث يحدّق فى الشق مبهورًا مأخوذًا ، لنصف دقيقة أخرى ، قبل أن يغمغم :

ـ الأمر يتجاوز كل ما تخيلته بالفعل .

تنحنح الدكتور (محمود) ، وقال ؛ محاولاً الحفاظ على سر كشفه الجديد المنتظر :

ـ إنها ظاهرة طبيعية ، و ...

قاطعه عمه فى غضب :

ـ كفى يا دكتور .

ثم التفت إلى الضابط ، قائلاً فى حدة :

ـ إنه جنى .. جنى فى الأعماق .

رمقه الشيخ (حسن) بنظرة غاضبة قاسية ، وهو يقول :

ـ ماذا قلنا ..

نقل ضابط المباحث نظرة بين الثلاثة ، قبل أن يقول فى عصبية شديدة :

ـ أعلم أنه ليس جنيًا يا شيخ (حسن) .

ثم رمق الدكتور (محمود) بنظرة نارية ، مضيفًا :

ـ وهو ليس ظاهرة طبيعية فى الوقت نفسه .

شعر الدكتور (محمود) بقبضة باردة كالثلج تعتصر قلبه ، وتحطّم حلمه ، وهو يغمغم :

ـ إننى أحاول دراسة الأمر ، و ...

قاطعه ضابط المباحث فى صرامة :

ـ هذا لا يكفى .

امتقع وجه الدكتور (محمود) ، وبدا وكأنـه قد انكمش على نفسه ، والضابط يتابع فى حزم :

ـ ما رأيته الآن يتجاوز قدرات رجل واحد .

هتف الدكتور (محمود) ، فى محاولة يائسة :

ـ إننى لست رجلاً عاديًا .

صاح الضابط ، وقد امتزجت صرامته بعصبية :

ـ وإن يكن .. ما رأيته الآن ليس مهمة رجل واحد ، ولا حتى فرقة أمن مركزى كاملة .

وعاد يحدّق فى الشق لحظة ، فى عصبية شديدة ، قبل أن يتابع فى حدة :

ـ إنه يحتاج إلى تدخُّل كل سلطات الدولة .. وزارة الدفاع ، والأمن القومى ، والبحث العلمى ، و ...

انتفض الدكتور (محمود) بشدة ، عندما أتى الضابط على ذكر البحث العلمى ، وخشى أن يكتظ المكان بالعلماء ، الذين

يحللون ويدرسون ، ويستعينون بأحدث الأجهزة والأدوات ، حتى يتوصلوا إلى نتائج ..

وينسب إليهم الفضل ..

وبكل هلعه من الفكرة ، هتف :

ـ هناك تفسير علمى بسيط .

استدار إليه الكل بنظرة مستنكرة ، وشعر هو أنه قد تورَّط بالقول ، فبحث عقله بسرعة عن جواب ما ، وقبل أن يدركه تمامًا ، وجد لسانه يندفع هاتفًا :

ـ انفجار ماسورة غاز .

انعقد حاجبا الضابط ، وبدا وكأنه يفكّر فى الاحتمال ، فخشى الدكتور (محمود) أن يضيّع الفرصة ، وتابع فى شىء من الحماس المفتعل :

ـ ماسورة انكسرت فى عمق الأرض ، أو انفجرت على الأرجح ، مما سبَّب الشق فى البداية ، واشتعال الغاز فى الأعماق جعله يتسع أكثر .. وأكثر .. وعندما بلغ مصدرًا رئيسيًا ، انفجر ، وكان ما رأيناه .

وعلى الرغم من أن التفسير قد وثب إلى عقله دون إعداد مسبق ، إلا أنه بدا منطقيًا إلى حد كبير ..

بل ومريحًا أيضًا ..

فلو صح هذا ، سيصبح الأمر كله مجرد خلل فى توصيلات الغاز ، بلا جنى أو ألغاز أو ...

« وماذا عن تلك الأنياب ، التى رأيناها ؟! »

هتف الحاج (عوض) بالسؤال ، ليقطع أفكارهم جميعًا ، فعادوا يتلفتون إلى بعضهم البعض فى ذعر ، فى حين تساءل الضابط فى عصبية :

ـ أية أنياب ؟!

حاول الدكتور (محمود) أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ آه .. إنه تكوين صخرى طبيعى ، فى باطن الأرض ، بدا أشبه بالأنياب ، و ...

لم يكمل عبارته ..

أو لم يستطع .

والواقع أنه لم يكن بحاجة إلى هذا ، فما أن بلغ هذا الجزء ، حتى قال الضابط فى عصبية ، وكأنما يتمنى إغلاق الموقف كله :

ـ إذن فهو تكوين طبيعى .

ثم استدار متجهاً إلى سيارته ، وتسابق أفراد الفرقة المصاحبة له إليها ، وهو يتابع :

ـ سنبلغ قسم طوارئ الغاز على أية حال ، ومع أول نسمات الصباح الباكر ، سيكونون هنا بإذن الله .

غمغم الدكتور (محمود) فى ارتياح :

ـ بإذن الله .

أما الحاج (عوض) ، فهتف مستنكرًا :

ـ وهل سننتظر هكذا حتى الغد ؟!

التفت إليه الضابط فى صرامة ، ولكنه تابع فى حدة :

ـ لو أن ماسورة غاز انفجرت فى الأعماق ، فهذا يعنى أن لكل دقيقة ثمنها .

لم يشعر الدكتور (محمود) ، فى حياته كلها بالغيظ ، مثلما شعر به فى تلك اللحظة ، والضابط يقول :

ـ أنت على حق .

ثم وثب داخل سيارته ، مضيفًا :

ـ سأرسلهم فورًا .

شعر الدكتور (محمود) بتوتر شديد ، يسرى فى أعماقه ، وبدا له أن تهوّر سكان الحى ، وضابط مباحث القسم ، سيفقده حلمًا لم يستقر فى وجدانه بعد ..

ومن أعمق أعماقه ، تمنى لو أن هذا لا يحدث ..

لو أن شيئًا ما يعوق ضابط المباحث ، والطاقم المصاحب له ..

تمنى أن يمتلك المزيد من الوقت ..

كل ما يكفى فى الوقت ..

وبمنتهى اليأس ، تابع ببصره سيارة الشرطة ، وهى تبتعد ..

وتبتعد ..

وتبتعد ..

و ...

وفجأة ، ارتجّت الأرض مرة ثانية ..

وفى هذه المرة ، كان الارتجاج أعنف ..

وأقوى ..

وأكثر رعبًا ..

فمعه ، امتدّ الشق فجأة فى الأرض ، أمام عيون الجميع ، واندفع عبر الشارع فى سرعة ، نحو سيارة الشرطة ..

امتدّ بسرعة مدهشة ، كما لو أنه يطارد السيارة ، ويحاول اللحاق بها ، قبل أن تبلغ نهاية الحى ..

هذا ما بدا للجميع ، على الرغم من أنهم قد كذبوا عيونهم ، وعقولهم ، وحاولوا طرح الفكرة بعيدًا عن رءوسهم ..

ولكن الشق بلغ سيارة الشرطة بالفعل ..

وبسرعة خرافية ..

وقبل أن يُدرك ركابها ما حدث ، كان الشق قد امتدّ أسفلهم ، وتجاوزهم ، وراح يتسع أسفلهم فى سرعة ..

وبكل قوته ، ضغط سائق سيارة الشرطة فراملها ، عندما شاهد الشق يتسع أمامه ..

ولكن فرملته هذه جاءت بعد الأوان ..

وفى مرحلة شديدة الخطورة ..

فما أن أوقف السيارة بهذه القوة ، حتى صرخ فيه ضابط المباحث ، بكل انفعال الدنيا :

ـ ماذا فعلت أيها التعس ؟!

ومع صرختـه ، انزلقت السيارة بحركة حادة ، ومالت على جانبها ، وسقط إطاراها الأيسران فى الشق ، وسمع الكل صوت ارتطام عنيف ..

وبكل ذعرهم ، حاول الضابط وطاقمه الوثب من السيارة ..

ولكن الأرض ارتجّت مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وبسرعة خرافية ، اتسع الشق أكثر وأكثر ، أسفل السيارة فقط ، وامتزجت صرخات ركابها بصرخات متابعى ذلك المشهد الرهيب ، والشق يبتلع السيارة أمام عيونهم ..

بكل ما عليها ..

ومن عليها ..

سقطت كلها فى قاع الشق ، قبل أن ترتج الأرض مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، أدى الارتجاج إلى أن يضيق الشق دفعة واحدة ، ليسمع الكل صوت تحطُّم جسم السيارة ، وعظام ركابها ، وصرخات الألم والرعب ، التى انبعثت من حلوقهم ..

وبعدها ، ران على الحى كله صمت رهيب ..

فلم ينبس أحد من سكانه بحرف ..

ولا حرف واحد .

* * *

4ـ الحصـــار..

شعور هائل بالرعب ، اجتاح الحى كله ..

كانت عقارب الساعة تقترب من الرابعة والنصف صباحًا ، وعلى الرغم من هذا فقد استيقظ الكل ، وحملوا أبناءهم ونفائسهم ، وبدءوا يستعدون لمغادرة المكان كله ..

لم يكن من الممكن أن يبقى فيه مخلوق واحد ، بعد أن ابتلع الشق سيارة الشرطة ، وسحقها مع ركابها ، فى لحظات معدودات ..

وبكل هلعهم ، حاول بعض السكان إجراء الاتصال بأقاربهم ومعارفهم ، فى هذه الساعة المتأخرة ؛ لتأمين محل إقامة ، خلال ما تبقى من ساعات الليل القليلة ..

ولكن كل الهواتف الأرضية لم تكن تعمل !

لسبب ما ، انقطعت الحرارة عنها جميعًا ، ولم يعد يصدر منها سوى صوت عجيب ، أشبه بأنين متصل ، ينبعث من أعماق أعماق الأرض ..

أو أعماق الجحيم ..

« الشق حطَّم كابلاً أرضيًا حتمًا .. »

هتف الدكتور (محمود) بالعبارة ، محاولاً تفسير الظاهرة ، ولكن الحاج (عوض) أجابه فى عصبية :

ـ الهواتف فى هذه المنطقة كلها هوائية ، وليست أرضية .

بدت الحيرة على وجه أستاذ الجيولوجيا ، ولم يدر بم يجيب هذا ، وخاصة عندما أضاف أحد شباب الحى :

ـ الهواتف المحمولة أيضًا لا تعمل .

وهنا ، كان الأمر يتجاوز أى تفسير علمى أو منطقى ، وعلى الرغم من هذا ، فقد غمغم الدكتور (محمود) ، فى لهجة متخاذلة :

ـ ربما هى موجة كهرومغناطيسية ..

لم يستطع إتمام عبارته ، مع النظرة الحائرة المذعورة ، التى أضافها المصطلح إلى العيون ، فزفر متمتمًا :

ـ إنه مجرد اقتراح .

أمسك الحاج (عوض) ذراعه فى قوة ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ هل نرحل أم نبقى ؟!

كان يرغب فى أن يطالبهم بالبقاء ، إلا أن لسانه هتف ، قبل أن يدرس عقله الموقف :

ـ ارحلـوا .

لم يكد ينطقها ، حتى خُيِّل إليه أنه قد فجَّر قنبلـة فى المكـان ، دون سابق إنذار ..

لقد هرع كل من تبقى من السكان إلى منزلـه ، وقد اعتبروا قول الدكتور (محمود) أمرًا بالرحيل ..

كانوا يتحركون فى سرعة وعصبية وتوتر ، خشية أن تتطوَّر الأمور ، قبل أن ينجحوا فى مغادرة الحى ، و ...

وفجأة ، حدث ما كانوا يخشونه ..

فبدون سابق إنذار ، وبدون حتى ارتجاج إضافى ، راح الشق يمتدّ بغتـة ، فى كل الاتجاهات ، وبسرعة خرافيـة ، امـتزجت بصرخات الكل ..

وخلال ثوان قليلة ، كان قد أحاط بالحى كلـه ، فى شكل غير منتظم ، ولكنه حاصر المكان على نحو بالغ الدقة ..

ثم ارتفعت تلك الأدخنة ..

فى هذه المرة ، كانت أدخنة حمراء ..

حارة ..

ساخنة ..

ملتهبة ..

وراح سكان الحى يصرخون ..

ويصرخون ..

ويصرخون ..

الدكتور (محمود) وحده بدا ذاهلاً ، لم ينبس ببنت شفة ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وحدَّق فى ذلك الشق بكل الذهول ..

ليس لأنه امتدّ ..

ولا لأنه حاصر الحى ..

بل ؛ لأنه يشف ، ولأوّل مرة ، عن عمل منظم دقيق ..

ومقصود ..

هناك شىء ما يعزل الحى ..

يحاصره ..

يسلخه عما يحيط به من أحياء ..

شىء غامض ..

شرير ..

مخيف ..

وبكل الرعب والهلع ، هتف أحد السكان :

ـ ماذا سنفعل ؟! كيف سنغادر هذا المكان ؟!

صاح فيه آخر فى انفعال :

ـ سأغادره ، مهما كان الثمن .

قالها ، وهو يحمل حقيبة صغيرة ، ويعدو نحو أحد جوانب الشق ..

ثم وثب عبره ..

لم تكن المسافة بين جانبى الشق كبيرة ، بل لا تتجاوز الستين سنتيمترًا على أكثر تقدير ..

ولكن الساكن عبر وسط الدخان الأحمر ..

ثم انطلقت منه صرخة رهيبة ..

أقوى صرخة ألم سمعها الكل ، فى حياتهم كلها ..

صرخة ، انخلعت لها القلوب ، وانفطرت معها الأفئدة ، وبلغ بعدها الرعب ذروته ..

وفى لحظة واحدة ، أو ربما أقل ، تحوَّل ذلك الساكن المسكين إلى شعلة من اللهب ..

شعلة راحت تعدو وتصرخ عشوائيًا ، قبل أن تسقط وتذوب ، أمام العيون المذعورة ..

وفى المكان كله ، ارتفعت رائحة شواء ..

شواء بشرى ..

وشهق الرجال ..

وصرخ الأطفال ..

وانهارت النساء ..

وهتف الحاج (عوض) :

ـ ماذا يحدث يا دكتور ؟! ماذا يحدث ؟!

وفى هذه المرة ، لم يستطع الدكتور (محمود) حتى تلفيق حل ما ..

أو جواب ..

أى جواب !!

وراح عقله يعمل بسرعة خرافية ، فى محاولة مذعورة لفهم ما يحدث ..

إنه أمام هجوم منظم ..

شامل ..

دقيق ..

هجوم تشنّه حتمًا مخلوقات عاقلة ..

ليس جنًّا حتمًا ، ولا أى كائن آخر معروف ..

إنها وحوش ..

وحوش ذكية ، خبيثة ، تحيا فى أعماق الأرض ..

« دابة الأرض .. »

غمغم الشيخ (حسن) بالكلمة ، فالتفت إليه الدكتور (محمود) متسائلاً فى انفعال ، فأضاف :

ـ إننا نشهد بداية النهاية .

غمغم الدكتور (محمود) :

ـ هناك حتمًا تفسير علمى .. كل شىء له حتمًا تفسير علمى .

تمتم الشيخ (حسن) :

ـ ليس كل شىء يا ولدى .

صرخ الدكتور (محمود) :

ـ بل كل شىء .

صرخته جعلته يدرك كم هو ثائر منفعل ، فاستنفر كل قواه ؛ للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يكمل :

ـ ربما يثير الأمر رعبنا ، ويفقدنا هذا بصيرتنا ، وقدرتنا على فهم الأمور ، ولكن هذا لا يعنى أنه بلا تفسير .

غمغم الشيخ (حسن) ، بصوت مرتجف :

ـ من التفسيرات ما لا يخضع للعلم يا ولدى .

هتف الدكتور (محمود) :

ـ مستحيل !

اتسعت عينا الشيخ (حسن) ، وهو ينظر إليه فى استنكار ، فاستدرك بسرعة :

ـ أعنى أن القليل جدًا كذلك .. حالات نادرة فحسب .

مال الشيخ (حسن) نحوه ، وهو يقول :

ـ وبم تصف حالتنا هذه ؟!

امتقع وجه الدكتور (محمود) ، ولم يستطع النطق بحرف واحد ، وراح ينقل بصره فى عصبية ، بين وجهى عمه ، والشيخ (حسن) ، وذلك الشق ..

وفى عقله ، راح يبحث عن كل جواب ..

كل جواب ..

وكل احتمال ..

وكل تفسير ممكن ..

ولكن ما من شىء انطبق على ما يحدث ..

وفى الوقت ذاته ، كانت تلك الأبخرة الحمراء تتصاعد ..

وتتكثف ..

وتتزايد ..

و ...

« انظروا .. »

هتف أحد سكان الحى فى ذعر ، وهو يشير إلى جزء من الشق ، فالتفتت العيون كلها إلى حيث يشير ..

ثم تجمَّدت القلوب فى الصدور ..

وهوت فى الأقدام ..

فهناك ، من ذلك الجانب ، كان جسم ما يصعد ، من قلب الشق ..

جسم تخفيه الأبخرة الحمراء ، التى صارت داكنة كثيفة ، على نحو مخيف ..

وضاقت كل العيون ، والكل يحاولون رصد ذلك الجسم ، الذى راح كل منهم يرسم له فى خياله هيئة مخيفة ..

وفى بطء ، تحرَّك ذلك الجسم ..

وتجاوز الأدخنة الحمراء ..

وظهر لعيونهم جميعًا ..

وهنا ، بلغ ذهولهم المدى ..

أقصى مدى ..

* * *

مع دقات الخامسة فجرًا ، اندفع مسئول الأمن القومى إلى قاعة اجتماعات جهة أمنية عليا ، وغمغم فى توتر ، وهو يتخذ مقعده ، حول مائدة الاجتماعات ، التى اكتظت بالجالسين حولها :

ـ كل ما بلغنا صحيح .

اعتدل رئيس الجلسة ، وسأله فى انفعال :

ـ الحى محاصر إذن ؟!

لوّح مسئول الأمن القومى بيده ، مجيبًا :

ـ الأمر لا يمكن وصفه ؛ لذا فقد فضلنا أن نلتقط فيلمًا مصوّرًا له ، حتى تصلكم الصورة كاملة .

أشار بيده ، فتم إطفاء أنوار القاعة ، وبدأ عرض الفيلم على الفور ، وهو يقول :

ـ كما ترون ، الحى كله محاصر بشق عجيب ، تتصاعد منه أبخرة سامة حارقة ، يسعى رجال القسم الفنى لتحديد ماهيتها الآن ، ولاستبعاد كونها نوع من الحرب الكيماوية الحديثة ، أو تجربة تجريها جهة أمنية عسكرية أجنبية على أرضنا .

غمغم شخص ما فى عصبية :

ـ إنه ليس فيلماً من أفلام الخيال .

أجابه مسئول الأمن القومى فى جدية :

ـ ونحن لم نتعامل معه من هذا المنطلق ، ولكن عقولنا مؤهلة لاستيعاب كل ما هو غير مألوف ، وخاصة فى زمننا هذا .

سأله رئيس الجلسة :

ـ هل أرسلتم من يتحرى الأمر مباشرة ؟!

أومأ مسئول الأمن القومى برأسه مجيبًا :

ـ بالتأكيد يا سيّدى ، ولدينا فريق عمل كامل ، يدرس كل ما يتعلّق بالأمر ، ويراجع كل البيانات والمعلومات القديمة ، ولقد تعاون معنا سلاح الطيران ، وحصلنا على صور جوية أيضًا .

بإشارة أخرى من يده ، تواصل عرض جزء آخر من الفيلم ، يبدو فيه الحى من أعلى ، وقد اشتعلت حدوده كلها ، بذلك الدخان الأحمر ..

ولثوان ، ساد القاعة صمت مبهور متوتر ، قبل أن يغمغم رئيس الجلسة :

ـ يبدو لى من أعلى أشبه برسم منتظم .

أشار مسئول الأمن القومى بيده ، قائلاً :

ـ بالضبط .. إنه يرسم حدود الحى كله ، ولكن مع شكل شديد الانتظام ، وإن بدا للوهلة الأولى عشوائيًا ، إلا أنه يعيد إلينا مشهد رسوم غامضة ، تم رصدها فى الحقول البريطانية ، عقب ..

بتر عبارته دفعة واحدة فى تردُّد ، فهتف به رئيس الجلسة فى حماس :

ـ أكمل يا رجل .

التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ عقب ظهور أجسام طائرة مجهولة الهوية .

ألقى العبارة ، فتفجّر ذهول مستنكر فى كل الوجـوه ، وراح الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض ، قبل أن يقول أحدهم فى خوف :

ـ هل سننتقل من الحقائق إلى الخزعبلات ؟!

التقط مسئول الأمن القومى أنفاسه ؛ للسيطرة على أعصابـه ، قبل أن يقول :

ـ تقاريرنا تعتمد على وثائق رسمية ، ومشاهدات تمت مراجعتها ، وتقارير صدرت عن سلاح الجو البريطانى ، ولا يمكن وصف كل هذا بالخزعبلات .

قال آخر فى عصبية :

ـ اسمع يا رجل .. نحن لم نجتمع هنا للعبث .. إننا أمام اعتداء خطير ، لابد من حسمه ومواجهته بمنتهى الشدة .

قال مسئول الأمن القومى :

ـ فى عالمنا ، نقول : إنه ينبغى لنـا أن نفهمـه أولاً ؛ فـلا أحد ينتصر فى حرب ، دون أن يمتلك أخطر أسلحتها .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا فى حزم :

ـ المعلومات .

عاد الكل يتبادلون تلك النظرة المستنكرة المستهجنة ، ثم قال أحدهم صارخًا :

ـ فليكن .. دعنا نبدأ بمناقشة الاحتمالات الأخرى أولاً .

صمت مسئول الأمن القومى لحظات ، ثم أجاب :

ـ فى الوقت الحالى .. لا توجد احتمالات أخرى .

وهنا ، بلغ الاستهجان ذروته ..

أو تجاوزها ..

* * *

ولو أننا قسمنا حالة الذهـول ، بين جميع سكان الحى ، على نحو يتفق مع تباين مشاعرهم ، فسنستطيع القول ، دون تردُّد ، أن نصيب الدكتور (محمود) منه كان سبعين فى المائة على الأقل ..

فما رآه أمامه كان يفجِّر كل ذرة من الذهول فى أعماقه ..

وعلى المستويين ، الإنسانى ..

والعلمى ..

فذلك الشىء ، الـذى خرج من الشق ، وراح يتجـه نحوهم ، كان الدليل الحى ، على أنهم يواجهون مخلوقات عاقلة ..

ومتطوّرة ..

كان جسمًا آليًا ، أشبه بكرة من المعدن اللامع ، تبرز فيها عدة زوائد منتظمة ، تختلف فى أطوالها ، وتتفق فى تألُّق أطرافها ..

ثم إن ذلك الجسم لم يكن يلمس الأرض ..

كان يطير ..

نعم .. يطير على ارتفاع نصف المتر تقريبًا ..

بالإضافة إلى هذا ، كان يتحرّك فى بطء حذر ، وكأنما يرصد كل ما حوله ..

وعلى الرغم من ذهولهم ، تجمَّد الجميع فى أماكنهم ، كتماثيل من الشمع ، واتسعت عيونهم عن آخرها ، وهم يحدّقون فى ذلك الجسم ، الذى لم يزد حجمه عن حجم كرة قدم عادية ، وهو يسبح فى الهواء ، ويتحرّك بينهم ..

والواقع أن أحدهم لم يجرؤ على إتيان حركة واحدة ؛ ربما لأنهم يجهلون تمامًا ما الذى يمكن أن يؤدى إليه هذا ..

وبمنتهى البطء والحذر ، راح ذلك الجسم المعدنى اللامع يتجوّل بينهم ، حتى غمغم الدكتور (محمود) ليكسر حاجز الصمت فجأة :

ـ مستحيل !

لم تكد الكلمة تتجاوز شفتيه ، حتى توقَّف ذلك الجسم المعدنى فجأة ، وكأنما تلقَّى إشارة ما ، ثم أدار أطول زوائده نحو الدكتور (محمود) ، وتألَّق طرفها بوميض أكثر ..

وفجأة ، اندفع ذلك الجسم نحو الدكتور (محمود) ..

وعلى الرغم منه ، شهق الحاج (عوض) مذعورًا ، وحاول أن يبعد ابن شقيقه عن مسار الجسم الغريب ، الذى توقف بغتة ، وبدا وكأنه متردّد بين الرجلين ، فاتسعت عينا الدكتور (محمود) عن آخرهما ، وهو يفكّر ..

ذلك الجسم ينجذب لمصادر الصوت ..

هذا هو التفسير الوحيد ..

لقد اتجه نحوه ، عندما غمغم بكلمته ، وتردَّد بينه وبين عمه ، عندما شهق هذا الأخير ..

الصوت يجذبه حتمًا ..

وهو الآن حائر بين مصدرين ..

السؤال هو .. ما سبب حيرته ؟!

ما الذى كان سيفعله ، عندما يصل إليه ؟!

لم يجرؤ بالطبع على تحويل أفكاره إلى صوت مسموع ، بل وربما خشى حتى أن يتنفس ، وهو يجهل ما يمكن أن يفعله به هذا الجسم ..

ولكن عمه لم يدرك هذا ..

عقله المحدود جعله يغمغم فى عصبية :

ـ ما هذا الشىء يا (محمود) ؟!

سقط قلب (محمود) بين قدميه ، عندما نطق عمه العبارة ، وحاول أن يحذره من الاستطراد ، إلا أن ذلك الجسم لم يمهله ؛ فما أن انبعثت عبارة عمه ، حتى انقض عليه على الفور ..

وتراجع الحاج (عوض) فى ذعر ، وصرخ :

ـ (محمود) .. النجدة !

لم يدر (محمود) ماذا يفعل بالضبط ، وحاول أن يندفع لإنقاذ عمه ، إلا أن ساقيه تيبستا وعجزتا عن الحركة تمامًا ..

بالضبط كما حدث لكافة سكان الحى ..

كلهم تجمدوا من شدة الرعب ..

كلهم اكتفوا بالتحديق فيما يحدث ، فى رعب فشل ..

أما ذلك الجسم المعدنى ، فقد دار حول الحاج (عوض) دورتين كاملتين ، صرخ الرجل خلالهما :

ـ أنقذونى .. أغيثونى .

ثم فجأة ، أطلق ذلك الجسم نحوه سائلاً ما ..

سائل لزج ، كثيف ، لم يكد يلمس جسده ، حتى راح ينتشر حوله فى سرعة ، كما لو أنه كائن حى طفيلى ..

وخلال ثوان قليلة ، كان قد زحف على جسده كله ، واتجه نحو وجهه ، وهو يصرخ فى يأس :

ـ (محمود) .

وهنا فقط ، تحرك (محمود) ..

اندفع نحو عمه ، وحاول أن يزيح ذلك السائل عن جسده بيديه ..

ولكن هيهات ..

ذلك السائل كان شديد اللزوجة ..

والقوة ..

والمرونة ..

ولقد أكمل زحفه ، على الرغم من كل محاولات (محمود) المستميتة ، حتى غطى وجه الحاج (عوض) كله ..

وفى هدوء ، ارتفع ذلك الجسم ، تاركًا خيطًا من تلك المادة اللزجة ، يربطه بالشرنقة الهلامية ، التى حوت جسد الحاج (عوض) ..

وارتفع معه جسد الحاج (عوض) ..

وفى انفعال جارف ، غمغم الشيخ (حسن) :

ـ سلام .. قولاً من رب رحيم .

ومع آخر حروف عبارته ، غاص ذلك الجسم فى أوسع مناطق الشق ، جاذبًا معه جسد الحاج (عوض) ..

واختفى كلاهما فى الأعماق ..

تمامًا .

* * *

5 ـ خبيـــر ..

« الأمر أخطر من كل توقعاتنا أيها السادة .. »

نطق مسئول الأمن القومى العبارة ، فى حزم متوتر ، وهو يراجع آخر التقارير ، التى وصلته من قيادته ، ثم وضع الأوراق أمامه على مائدة الاجتماعات ، مضيفًا :

ـ الحى كله محاط بجدار من الطاقة الكهرومغناطيسية ، يعوق حتى مسار الطائرات فى مجاله الجوى ، وتلك الغازات ، التى تنبعث من الشق مجهول المصدر ، لا مثيل لها ، من حيث التركيبات الطبيعية والكيماوية المعروفة ، فى كل معامل كوكب الأرض .

غمغم أحد الحاضرين فى عصبية :

ـ هل سنعود للحديث عن مخلوقات الفضاء وخزعبلاتهم .

تجاهل مسئول الأمن القومى التعليق تمامًا وتابع وكأنه لم يسمعه :

ـ ثم إننا لم نرصد الظاهرة وحدنا ، بل تم رصدها أيضًا بالأقمار الصناعية ، فى عدد من البلدان الأخرى .

هتف أحدهم :

ـ هل تكرَّر هذا فى أماكن أخرى ؟!

صمت مسئول الأمن القومى لحظة ، ثم قال فى توتر :

ـ لقد رصدوه هنا .

صاح آخر معترضاً :

ـ أتعنى أننا مراقبون ؟!

لم يبد أحدهم موقفًا من العبارة ، وتجاهلها مسئول الأمن القومى تمامًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ والواقع أن بعضهم كان يتوقَّع ما حدث ، على نحو أو آخر .

كانت عبارته الأخيرة أشبه بقنبلة مدوية ، انفجرت وسط الاجتماع ، فصرخ بعضهم :

ـ يتوقعه ؟! ماذا تعنى ؟!

وصاح البعض الآخر :

ـ ماذا يفعلون بنا بالضبط ؟!

وصرخ آخر فى غضب :

ـ أأصبح وطننا منتهكًا إلى هذا الحد ؟!

زفر مسئول الأمن القومى فى توتر بالغ ، ورفع كفيه ؛ محاولاً تهدئة الجميع ، قبل أن يقول :

ـ عندما أقول أنهم يتوقعونه ، لم أكن أعنى أنهم صنعوه ، ولكنه نوع من التنبؤ العلمى .. كانوا يعلمون أن شيئًا ما سيحدث هنا .. فى منطقة الشرق الأوسط ، ولكن لم يكن أحدهم يعلم متى وأين بالتحديد .

ساد الهرج والمرج مرة أخرى ، فتدخَّل رئيس الجلسة ؛ لحسم الأمر فى صرامة ، قبل أن يسأل مسئول الأمن القومى :

ـ هل لك أن تفسِّر لنا ما يعنيه قولك هذا ، قبل أن ينفرط عقد المجلس .

هزَّ مسئول الأمن القومى رأسه ، قائلاً :

ـ لست أعتقد أنه بإمكانى شرح الأمر بصورة جيدة .

تراجع الرئيس فى دهشة مستنكرة ، فاستدرك مسئول الأمن القومى فى سرعة :

ـ ولكن هناك من هو أقدر منى على هذا .

تطلَّع إليه الكل فى تساؤل قلق متوتر ، مما جعله يتابع :

ـ فى الواقع إن هناك خبيرًا أمريكيًا ، من وكالة الفضاء والطيران ، كان فى مهمة خاصة ، فى بلدة مجاورة ، فى انتظار رصد ما سيحدث ، وفور أن سجَّلت الأقمار الصناعية الحدث ، قام المسئولون بالاتصال به ، وهو فى طريقه إلى هنا الآن .

تضاعفت نظرات الاستنكار والاستهجان ، وتعالت همهمات الحاضرين الغاضبة ، قبل أن يقول أحدهم فى غضب عصبى ثائر :

ـ هل بلغ بنا الأمر هذا الحد ؟! هل سيأتى أجانب غرباء ، لحل شىءوننا الداخلية .

أثارت عبارته غضب وتوتر الحاضرين ، واندفع كل منهم يلقى تصريحًا حماسيًا ، ولكن مسئول الأمن القومى استوقفهم جميعًا بإشارة صارمة من يده ، قبل أن يقول :

ـ لو صح ما رصدته وكالة الفضاء والطيران الأمريكية ، فسيعنى هذا أن الأمر يتجاوز كونه مشكلة محلية ، إلى حدث علمى شديد الخطورة ، لن تكفى إمكانياتنا العلمية لمواجهته .

هتف آخر فى غضب :

ـ نفس الحجج الاستعمارية القديمة .. إننا غير قادرين على حماية أنفسنا .

انعقد حاجبا مسئول الأمن القومى فى صرامة ، وهو يقول فى غضب :

ـ مهلاً أيها السادة .

صمت الكل ، وتطلعوا إليه فى قلق ، فتابع فى شىء من الحدة والصرامة :

ـ أحاديثكم وتعليقاتكم تلمِّح إلى أننا قد فقدنا الولاء للوطن ، والخوف على مصالحه ، وهى اتهامات نرفضها تمامًا ، حتى ولو جاءت مبطنة بنوايا طيبة .. إننا نتحدَّث هنا عن مواجهة علمية .. مواجهة تحتاج إلى تكنولوجيا بالغة التطوّر ، وخبراء فى شئون الطاقة والفضاء ، ولا أحد يمكنه رفض يد المساعدة ، فى مثل هذه الظروف .. ألم يسأل أحدكم نفسه ، ما البديل لعدم تدخل الأمريكيين ؟! ما الذى يمكن أن تتطوَّر إليه الأمور ، لو أننا أصررنا بعناد جاهل على عدم تدخلهم ، وعدم استغلال إمكانياتهم ، وخبراتهم الفضائية ، فى مواجهة خطر .. ربما أتى من الفضاء الخارجى .

اندفع رجل يقول :

ـ وربما كان حجة لتدخلهم .

شدَّ مسئول الأمن القومى قامته ، وجلس بمنتهى الاعتدال ، وهو يقول فى حزم :

ـ ولو أنهم يمتلكون مثل هذه القوة ، فأية حجة يحتاجون ؟! كان يكفيهم تجاوز واحد من الجماعات المتطرّفة ، ليفعلوا نفس ما سيفعلونه ، حتى لو اعترض المجتمع الدولى كله .. تاريخهم يؤكّد هذا .

ران على قاعة الاجتماعات صمت مهيب ، بعد أن أنهى عبارته ، وراح الكل يتطلعون إلى بعضهم البعض ، قبل أن يغمغم أحدهم فى تخاذل :

ـ ربما لم يكن الأمر كما نتصوّر .

قال مسئول الأمن القومى فى حزم :

ـ بل إنه كذلك .

دخل أحد معاونيه فى هذه اللحظة ، ومال على أذنه ، يهمس بكلمات سريعة ، اعتدل بعدها الرجل ، وقال :

ـ على أية حال ، لقد وصل الخبير الأمريكى وسيشرح لكم الأمر بنفسه .

مع قوله ، تعلّقت العيون كلها بشاب أشقر ضئيل الجسد ، دلف إلى القاعة مرتبكًا ، وعدّل منظاره الطبى على أنفه ، وهو يقول بالأمريكية :

ـ (جون فيليب) .. وكالة الفضاء والطيران (ناسا) .

وفى هذه المرة لم ينبس أحدهم ببنت شفة ..

لقد ساد بعد عبارته صمت ..

صمت تام ..

* * *

لثوان ، ظلّ الكل يحدّق فى تلك البقعة ، التى اختفى عندها جسد الحاج (عوض) ، فى رعب بلا حدود ..

فما حدث ، كان هولاً ..

ويا له من هول ..

ذلك الشىء فى الأعماق ، لم يعد يكتفى بمحاصرة الحى ، وإنما بدأ مرحلة الهجوم ..

والاقتناص ..

والصيد ..

ذلك الجسم الغريب اقتنص أهم وأشهر سكان الحى ، أمام عيون الجميع ..

بلا رحمة ..

أو هوادة ..

أو تروّى ..

وبكل الذعر ، غمغم أحد السكان :

ـ سيصطادوننا واحداً بعد الآخر .

غمغم آخر :

ـ من هم ؟!

ردَّد الشيخ (حسن) فى خشوع :

ـ بل قل ما هم ؟!

ظلّ الدكتور (محمود) يحدّق فى منطقة الشق ، حيث اختفى جسد عمه ، والدموع تسيل من عينيه فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ إنها مخلوقات عاقلة .

هتف أحدهم مستنكرًا :

ـ عاقلة ؟!

أشار بيد مرتجفة ، قائلاً :

ـ ذلك الشىء ، الذى اختطف عمى ، هو آلة صناعية .. آلة صنعتها عقول ذكية .. عقول تفوق عقولنا .

تمتم الشيخ (حسن) فى دهشة :

ـ أى قول هذا يا أستاذ ؟!

هتف (محمود) فى انفعال :

ـ قول العلم يا شيخ (حسن) .. نحن نواجه غزوًا .

ردَّد بعض السكان فى هلع :

ـ غزو ؟!.. الأمريكيون ؟!

هتف :

ـ بل غزو من عالم آخر .. أو ربما من كيان آخر .. لسنا ندرى من أين أتى ، ولا حتى كيف أتى ، ولكنه هنا .

صاح أحد الرجال :

ـ وستقتلنا واحداً بعد الآخر .

هزَّ الدكتور (محمود) رأسه ، قائلاً :

ـ لا داع للمبالغة .. إننا لم ..

قبل أن يتم عبارته ، صرخت امرأة ، وشهق رجل ، ورأى العديدين يفرون من أمامه ، فاستدار إلى حيث ينظرون ..

وانتفض جسده كله ..

بمنتهى العنف .

* * *

مع بدء عرض ذلك الفيلم ، الذى أحضره (جون فيليب) معه من (هيوستن) ، ران على حجرة الاجتماعات صمت مهيب ..

وبكلماته الهادئة ، التى لا تتفق مع طبيعة الموقف ، راح (جون) يشرح لهم ما يرونه :

ـ هذا أيها السادة هو كوكب (الزهرة) ، كما رصده تليسكوب (هابل) ، حتى شهر واحد مضى ، وهو كما تعلمون ، ثانى كوكب فى منظومتنا الشمسية ، ويعتبر أكثر الكواكب قربًا من الأرض ، وعلى الرغم من هذا ، فمعلوماتنا عنه تقل كثيرًا عن معلوماتنا عن (المريخ) ، بسبب أنه محاط بغلاف غازى ، يحجب الرؤية عن سطحه تمامًا ، ويؤدى فى الوقت ذاته إلى

حبس الحرارة عليه ، بحيث تقترب على سطحه من درجة الانصهار ، ولا تدور حوله أية أقمار أو توابع ، أو ...

قاطعه أحد الحاضرين ، فى شىء من العصبية :

ـ لست أظننا هنا ؛ لسماع محاضرة عن الكواكب ، فى السادسة إلا الربع صباحًا .

لم يفهم (جون) ما تعنيه العبارة ، التى نطقها صاحبها بالعربية ، إلا أن اللهجة أوحت إليه أنه قد أسرف فى الشرح ، فانتقل إلى النقطة التالية فى سرعة ، قائلاً :

ـ ومنذ شهر تقريبًا ، رصد علماؤنا ظاهرة عجيبة ، عند كوكب (الزهرة) ، لم يمكنهم فهمها فى حينها .

ضغط زرًا ، فتبدَّل العرض ، وظهرت صورة للكوكب ، تنفصل عنه قطع ملتهبة صغيرة ، سرعان ما تختفى فى الفضاء المحيط ، و(جون) يتابع :

ـ تلك الأجسام الملتهبة كانت تنفصل عن كوكب الزهرة ، فى إيقاع منتظم ، ثم تبدو وكأن نيرانها تخبو ، وتبرد ، ثم لا تلبث أن تتلاشى فى الفضاء .. العلماء رصدوا الظاهرة ، وفسروها فى لحظتها بأنها نوع من الانفجارات ، حدثت تحت الغلاف الغازى للكوكب ، واندفعت خارجه ، على الرغم من أن جاذبيته شديدة القوة ، وشبهوا هذا بالانفجارات الشمسية ..

غمغم أحدهم بالإنجليزية :

ـ تفسير معقول .

مطَّ (جون) شفتيه ، وتابع :

ـ ولكن الظاهرة كان لها جزء ثان .

انتبه الكل لقوله ، واعتدل رئيس الجلسة فى اهتمام بالغ ، فتابع (جون) ، وجزء جديد من الفيلم يعرض :

ـ فجأة ، ودون سابق إنذار ، ظهرت تلك الأجسام الملتهبة ، خارج الغلاف الجوى الأرضى ، وبدأت اشتعالها ، قبل حتى أن تلمسه ، على عكس ما تحتمه قوانين الطبيعة ، وبعدها دخلت الغلاف الجوى ، وعلى الرغم من أن المفترض أن ترتفع درجة حرارتها ، مع الاحتكاك بالهواء ، إلا أن العكس هو الذى حدث .

صمت لحظة ، وكأنه يتنظر تأثير كلماته عليهم ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ لقد بردت تلك الأجسام ، فور دخولها الغلاف الجوى الأرضى ، و ...

ازدرد لعابه ، قبل أن يضيف متوترًا :

ـ واختفت .

هنا فقط ، سرت همهمات عصبية بين الحضور ، وبدا الكل شديد التوتر ، قبل أن يقول مسئول الأمن القومى :

ـ (ناسا) تعتقد أن تلك الأجسام ، الآتية من كوكب (الزهرة) ، قد اختفت هنا ، فى منطقة الشرق الأوسط .. لم تكن البقعة محددة بالضبط ، حتى حدث ما حدث هنا .

اتسعت العيون كلها فى هلع ، وغمغم رئيس الجلسة :

ـ أيعنى هذا أننا بالفعل نواجه غزوًا ، كما يحدث فى أفلام الخيال العلمى .

أومأ مسئول الأمن القومى برأسه إيجابًا ، وقال بكل توتر الدنيا :

ـ من كوكب (الزهرة) .

هنا ، تبادل الكل نظرة صامتة ، لم يجرؤ أحدهم على أن يضيف إليها همسة واحدة ، حتى تمتم واحد فى حذر :

ـ هذا أمر يفوق إدراكنا .

أضاف مسئول الأمن القومى فى سرعة :

ـ وإمكانياتنا .

التقط مسئول الأمن القومى نفسًا عميقًا ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ الآن .. اتفقنا .

وبدأت المناقشات ..

عمليًا ..

* * *

كان من الواضح أن الغزو الشامل قد بدأ ..

فعبر ذلك الشق ، الذى يحاصر الحى تمامًا ، ارتفعت عشرات الأجسام المعدنية اللامعة ..

نسخ مطابقة لذلك الجسم الذى اختطف عمه ، خرجت من الشق ، واتجهت فى بطء نحو سكان الحى ..

وفى هذه المرة ، لم يقف أحدهم ساكنًا ..

بعد ما رأوه يحدث للحاج (عوض) ، سرى فيهم جميعًا رعب هائل ، وراحوا يعدون فى كل الاتجاهات ، فى محاولة للفرار ..

الدكتور (محمود) وحده تجمَّد فى مكانه ، وحدَّق فيما أمامه ، فى ذهول ما له من مثيل ..

وعبر الجميع ، انطلقت تلك الأجسام ..

وعلى الرغم من حالة الفزع ، والهرج والمرج ، والارتباك بلا حدود ، فإنها لم تنقض على شخص واحد ..

فقط راحت تسبح فى الهواء بينهم ، وكأنها ترصد وتسجِّل كل ما تراه أمامها ..

ثلاثة منها على الأقل ، دارت حول الدكتور (محمود) ، ثم تجاوزته ، وراحت تجوس بين الجميع ..

وفى القلوب ، راح الرعب يتصاعد ..

ويتصاعد ..

ويتصاعد ..

نساء فقدن الوعى ..

أطفال أصابتهم حالة هستيرية ..

كبار سقطوا على ركبهم ضارعين متوسلين ..

والشيخ (حسن) هرع إلى المسجد ، يستعيذ بالله (سبحانه وتعالى) ، من هذا الشر المستطير ..

ولم تتوقَّف الصرخات لحظة واحدة ..

الكل راحوا يصرخون ..

ويجرون ..

ويتخبطون ..

وينهارون ..

والأجسام المعدنية تجول بينهم ، وترصدهم ، وتسجل انفعالاتهم واضطراباتهم ..

ثم فجأة ، صرخ الدكتور (محمود) :

ـ كفى .

مع صرخته ، تجمَّد المشهد كله فجأة ..

الناس توقَّفت عن العدو ..

العيون كلها التفتت إليه ..

القلوب خفقت فى عنف ..

والأجسام تجمَّدت ..

نعم .. تجمَّدت فجأة فى الهواء ، وكأنها قد تلقَّت الأمر منه ..

وبكل انفعاله ، الذى يوشك على الانهيار هتف متابعًا :

ـ ماذا تفعلون بنا ؟! ماذا تريدون منا .. نحن لم نفعل لكم شيئًا .. اتركونا لحالنا .. اتركونا .. اتركونا ..

راح يكرِّر الكلمة الأخيرة على نحو هستيرى ، وصوته يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

أما تلك الأجسام المعدنية ، فقد بدا وكأنها تصغى إليه فى انتباه ، وراحت أطراف زوائدها تتألَّق ، فى إيقاعات مختلفة ولكنها منتظمة ..

كان الأمر يبدو كما لو أنها تتشاور فيما بينها ، بلغة الضوء والإشارات فحسب ..

ثم استجمع الدكتور (محمود) كل ما تبقى من قوته ، وصرخ صرخة أخيرة :

ـ ارحلوا .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، انطلقت تلك الأجسام كلها ..

انطلقت عائدة إلى الشق ..

وأمام العيون الذاهلة ، راحت تختفى داخله ، واحداً بعد الآخر ، وتغوص وسط الدخان الأحمر الداكن ..

وخلال أقل من دقيقة واحدة ، كان الحى قد خلا منهم تمامًا .. وفى ذهول ، خرج الشيخ (حسن) من المسجد ، مغمغمًا :

ـ لقد أطاعوك .

ثم رفع يديه إلى السماء ، والأفق يصطبغ بأضواء الفجر الأولى ، مضيفًا :

ـ القادر (عزَّ وجلَّ) أزاح الغمة .

حدَّق الدكتور (محمود) فى الأبخرة الحمراء ، التى ما زالت تتصاعد من الشق ، وتمتم :

ـ ليس بعد .

تبعه الجميع بأبصارهم فى توتر بالغ ، وهو يتجه فى خطوات بطيئة نحو الشق ، وغمغم أحدهم فى ذعر :

ـ هل جن الرجل ؟!

أجابه آخر همسًا :

ـ موت عمه الوحيد أمام عينيه ، لم يكن هينًا .

هزَّ ثالث رأسه فى شفقة ، قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

لم يسمع الدكتور (محمود) حرفًا واحدًا من كل هذا ، وهو يتجه نحو الشق ، وبقى على قيد خطوات منه ، حتى يكاد يستنشق الأبخرة ..

كان مشهدًا رهيبًا بحق ، لم يفهمه أى من الحاضرين ، الذين ارتجفوا جميعًا بلا استثناء ، عندما قال فجأة ، فى حزم قوى واثق شديد :

ـ لماذا أتيتم ؟!

اتسعت عيون سكان الحى ، وراحوا يضربون كفًا بكف ، وقد بدا لهم أن أستاذ طبقات الأرض قد جن فعليًا ، إلا أنه تابع بنفس اللهجة :

ـ لقد أخطأتم فى أسلوبكم .. كان ينبغى أن تأتوا مسالمين .. كنا سنحسن استقبالكم .. لم يكن هناك داع لكل هذا العنف ..

هتف الشيخ (حسن) :

ـ دكتور (محمود) ؟! ماذا أصابك ؟!

تجاهله (محمود) تمامًا ، وهو يصرخ :

ـ لماذا كل هذا ؟! لماذا ؟!

مع نهاية صرخته ، انطلقت شهقات وصرخات ، من حلوق الجميع .. فعند الشق ، ظهر كفان فى حمرة الدم ، لهما أظافر طويلة مخيفة ، يمسكان طرف الشارع ..

كان مخلوق ما يخرج من الشق ..

مخلوق غير أرضى ..

على الإطلاق .

* * *

6ـ لقـــاء ..

لو أن سكان ذلك الحى ، من أحياء (القاهرة) ، قد شاهدوا ألف فيلم ، من أفلام الخيال العلمى ، فمن المؤكد أنهم لن يتخيلوا تواجدهم فى موقف كهذا قط ، مهما طال بهم العمر ..

بل إن المشهد نفسه ، لم يشبه أى مشهد رأوه ، فى أكثر الأفلام إغراقًا فى الخيال ..

أو هكذا تصوَّروا ..

فأمام عيونهم الذاهلة ، المذعورة ، الملتاعة ، المتسعة عن آخرها ، تسلَّق مخلوق رهيب حافة الشق ..

مخلوق له تكوين ضخم نسبيًا ، وبشرة حمراء فى لون الدم ، يحيط بها رداء شفاف ، بدا أشبه بتلك المادة اللزجة الكثيفة ، التى أحاطت بالحاج (عوض) ، قبل أن يختفى داخل الشق ..

أما الملامح ، فقد كانت صورة مجسمة للرعب ..

ملامح ذات تقسيم بشرى بحت ، لها أنف ، وفم ، وعينان وأذنان ، ولكن كل لمحة منها تختلف ..

الأنف غليظ ، مفلطح عريض ..

والفم أشبه بشق فى منتصف الوجه ، يبرز منه زوجان من الأنياب الحادة ، الشبيهة بأنياب أسماك القرش ..

والعينان واسعتان ، ضخمتان ، تحتلان ربع مساحة الوجه تقريبًا ، ولهما لون أسود ممتزج ، دون بياض محيط ..

أما الأذنان ، فهما أشبه بقرنين ..

خلقة بشعة ، رهيبة ، جعلت الكل يتراجعون فى رعب هائل ، وذلك المخلوق يصعد وسط الدخان الأحمر ، الذى لم يؤثر فيه على الإطلاق ، ثم يتجاوزه ، ويتقدَّم عشر خطوات إلى الأمام ..

وفى كل خطوة يخطوها ، كان الدكتور (محمود) يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

ثم توقَّف الاثنان ..

الدكتور (محمود) ..

وذلك المخلوق ..

ومن المؤكَّد أن ذلك الحى لم يشهد صمتًا كهذا ، فى عمره كله ..

حتى المقابر ، يمكن أن تسمع فيها شىء ما ..

أما هناك ، فقد بدا الأمر أشبه بصورة جامدة ، تم حذف الصوت منها تمامًا ..

ولدقيقة كاملة تقريبًا ، ظلَّ الوضع جامداً ، قبل أن يرفع ذلك المخلوق يده ، وهو يمسك شيئًا أشبه بالمصباح اليدوى ، وجهه نحو وجه الدكتور (محمود) تمامًا ، فسرت ارتجافة باردة كالثلج ، فى جسد هذا الأخير ، وهو يحدِّق فيه فى قلق شديد ..

لم يدر ماهية ذلك الشىء بالضبط ، ولكنه خشى أن يكون سلاحًا ما ..

سلاح موجَّه إلى رأسه .. مباشرة ..

وفى محاولة يائسة ، تطلَّع إلى عينى ذلك المخلوق ، محاولاً أن يقرأ ما يدور فى ذهنه ..

وارتجف جسده أكثر ..

فالعينان بدتا أكثر إثارة للرعب ، مع سوادهما الداكن ، المكوَّن من كيان واحد ، لا تتوسَّطه قزحية كعيوننا ..

عينان بديتا أشبه ببئر عميقة بلا قرار ..

بئر باردة ..

مظلمة ..

مخيفة ..

ثم فجأة ، ضغط ذلك المخلوق ما يحمله ..

وانتفض جسد الدكتور (محمود) انتفاضة عنيفة ..

ولكن شيئًا لم يصبه ..

كل ما حدث ، هو أن ذلك الشيء ، الذى يحمله المخلوق ، ويصوّبه نحو رأسه ، راح يتألّق ، فى إيقاع بدا منتظمًا ، وأشبه بالإشارات الضوئية ، التى تتبادلها السفن فى عرض البحر ..

كان الإيقاع سريعًا للغاية ، حتى إن أستاذ علم طبقات الأرض لم يستطع استيعابه ، فهتف :

ـ إنك تحاول التواصل .. أليس كذلك ؟!

توقف المخلوق لحظة ، تطلّع خلالها إليه ، وهو يخفض يده إلى جواره ، ثم لم يلبث أن عاد يصوّب جهازه ، الذى واصل تألقه شبه المنتظم ..

كانت الشمس تبدأ رحلتها ، من خلف البنايات المرتفعة ، والضوء يتسلّل ليغمر الحى ، ويعيد لمحة من الاطمئنان إلى القلوب ، إلا أن السكان كلهم ظلوا جامدين ، صامتين ، يحدّقون فيما يحدث أمامهم فى ذهول مذعور ..

وذلك الجهاز فى يد المخلوق يتألّق ..

ويتألّق ..

ويتألّق ..

ومرة أخرى ، هتف الدكتور (محمود) :

ـ لو أنها وسيلة للتواصل ، فلسنا نفهمك هنا .

ثم انخفض صوته ، وهو يضيف :

ـ ربما لو أنه لدينا المزيد من الوقت .

قاطعه الشيخ (حسن) مستنكرًا :

ـ المزيد ؟!

أجابه (محمود) ، دون أن يرفع عينيه عن ذلك المخلوق :

ـ ألم تفهم يا شيخ (حسن) ؟! إنه مخلوق عاقل ، يحاول

التواصل معنا ، ولكنه يتحدّث حتمًا لغة نجهلها .. وهو أيضًا يجهل لغتنا ، لذا فهو يحاول استخدام الإشارات .

غمغم الشيخ (حسن) :

ـ ألم أقل لكم ؟! الجن يفهموننا .

شعر الدكتور (محمود) بالغيظ ؛ لأن الرجل ما زال يفكّر فى الجن ، وذلك المخلوق يقف أمامه ، وحاول أن يتماسك ، وأن يستعيد حلمه ، وهو يقول :

ـ أظنكم لم تقصدوا شرًا ، على الرغم من كل ما فعلتموه .. كنتم تحاولون فهمنا .. أليس كذلك ؟!

لم يتحرّك المخلوق ، وهو ما زال يصوّب أداته إلى رأس الدكتور (محمود) ، فغمغم أحد السكان ، فى توتر لا محدود :

ـ أما من نهاية لكل هذا ؟!

أدار المخلوق عينيه السوداوين إلى ذلك المتحدّث ، فانكمش فى موضعه رعبًا ، وهو يتمتم :

ـ لم أقصد هذا .. لم أقصده .

غمغم الدكتور (محمود) فى عصبية :

ـ تماسك يا رجل .

عاد المخلوق إليه بحركة حادة ، وخفض أداته ، وكأنما أدرك عدم جدوى التعامل بها ..

ثم اتجه نحو الدكتور (محمود) ..

كان يتحرّك فى حذر ، وهو يرصد الجميع ، ويتقدّم خطوة تلو أخرى ، فى حين تجمّد الدكتور (محمود) فى مكانه ، ولم ينبس ببنت شفة ، أو يحرّك ساكنًا ..

واقترب المخلوق أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

اقترب ، حتى صار على مسافة خطوة واحدة من أستاذ الجيولوجيا ، ثم مال برأسه نحو وجهه مباشرة ..

كان طوله يناهز المترين ، لذا فقد انحنى على نحو مخيف ، ليحدّق فى وجهه البشرى مباشرة ..

وارتجف جسد الدكتور (محمود) ، كما لم يرتجف من قبل ..

ارتجف ، وهو يتطلّع إلى العينين السوداوين اللامعتين الكبيرتين ، والأنياب الشبيهة بأسماك القرش ..

ومرة أخرى ، راوده شعور بأن ذلك الشيء سينقض عليه بغتة ، ويلتهمه بلا رحمة ..

ثم إنه لم يشعر بأنفاسه ..

ذلك الشيء لا يتنفس ..

أو أنه يستخدم وسيلة تنفس مختلفة ، لا تشبه وسيلتنا المباشرة ..

وربما أن ذلك الغلاف المحيط به ، يحجب أنفاسه داخله ..

ولو أن الاحتمال الأخير هو الصحيح ، فلا ريب فى أنها أنفاس ملتهبة مثل جسده ..

أنفاس نارية ، تتفق مع حياته فى الأعماق ..

المهم أن الدكتور (محمود) قد تجمّد تمامًا ..

ساقاه تحولتا إلى كتلتين من الخشب ، تسمرتا فى موضعه ، فبدا وكأنما تصلّب كله دفعة واحدة ..

وفى بطء شديد الحذر ، رفع ذلك الشيء يده ، وراح يتحسَّس جسد الدكتور (محمود) فى بطء ودقة ..

ومرة أخرى ، غمغم الشيخ (حسن) :

ـ سلام .. قولاً من رب رحيم ..

أما سكان الحى ، فقد حبسوا أنفاسهم ، وعقولهم تسترجع مشاهد رهيبة سابقة ..

مشهد كتلة اللحم المفرية ..

وسيارة الشرطة ، وهى تسقط فى الشق ..

واختطاف الحاج (عوض) ..

وكلهم تساءلوا ، ماذا سيكون مصير الدكتور (محمود) ؟!

ماذا ؟!

ماذا ؟!

وبعدما يقرب من دقائق ثلاث ، تحسَّس ذلك المخلوق خلالها جسد الدكتور (محمود) ووجهه ، اعتدل واقفاً أمامه ، ثم تراجع خطوتين إلى الخلف ، ووقف ثابتًا ..

لدقيقة كاملة ، لم يحرّك ساكنًا ، وهو يقف كالتمثال ، والكل يحدّق فيه فى حيرة قلقة مذعورة ..

ثم فجأة ، فهم الدكتور (محمود) الموقف ..

وفى انفعال مفاجئ ، هتف :

ـ رباه ! إنه يمنحنى الفرصة لفحصه ، كما فحصنى .

هتف الشيخ (حسن) مستنكرًا :

ـ هل ستلمس ذلك الشيء ؟!

أجابه بنفس الانفعال :

ـ هذا ما ينتظره .

ثم تقدّم نحو المخلوق ، مضيفًا :

ـ وهذا ما لن أفقد فرصته .

رفع يده ، وراح يتحسّس جسد ذلك المخلوق ، الذى ظلّ جامداً ، مفسحاً له مجال الفحص ، وعيناه السوداويان تتابعان حركته ..

أما الدكتور (محمود) ، فقد راح يخزن كل المعلومات فى ذاكرته ، ويمنى نفسه بنشر تجربته هذه ، فى أكبر مرجع علمى معروف ، وشعر بالارتياح ؛ لأن هناك عشرات الشهود على ما حدث ..

لن يمكن أن يشكك أحد فى روايته ..

وهو سيكتبها على نحو علمى ..

أول لقاء مع مخلوقات عاقلة ، من كوكب آخر ..

أول حقيقة فضائية على الأرض ، لا تقبل الجدل ..

رباه .. ستفوق شهرته الآفاق حتمًا ..

وهذا يفوق أحلامه ..

يفوقها ألف مرة ..

اعتدل بعينين متألقتين ، وهو يقول للمشاهدين :

ـ ألا يمتلك أحدكم آلة تصوير ؟!

قبل حتى أن يكتمل سؤاله ، تراجع ذلك المخلوق ، ووقف عند طرف الشق ، ثم رفع يده إلى أعلى بحركة حادة ..

حركة أفزعت كل الواقفين ..

وعقبها مباشرة ، جاءت المفاجأة ..

أكبر مفاجأة ..

* * *

بدا (جون فيليب) ، خبير وكالة الفضاء والطيران الأمريكية (ناسا) شديد التوتر ، وهو يجلس إلى جوار مسئول الأمن القومى فى سيارة هذا الأخير ، وغمغم فى عصبية :

ـ هل تعتقد أننا سنصل فى الوقت المناسب ؟!

انعقد حاجبا مسئول الأمن القومى ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا يتوقَّف على ما تعنيه بالوقت المناسب .

زفر (جون) فى عصبية ، وقال :

ـ إنهم لن يبقوا إلى الأبد .

قال مسئول الأمن القومى فى سرعة :

ـ من أدراك ؟!

ارتبك (جون) أكثر ، وهو يقول :

ـ إنه مجرَّد تصوّر .

ضغط مسئول الأمن القومى فرامل سيارته بغتة ، على نحو مفاجئ ، فاندفع جسد (جون) إلى الأمام ، وهتف فى عصبية وحدة :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟!

استدار إليه مسئول الأمن القومى ، قائلاً فى صرامة أكثر :

ـ ماذا تخفى أنت ؟!

امتقع وجه (جون) ، وهو يهتف :

ـ أخفى ؟!

مال مسئول الأمن القومى نحوه ، قائلاً :

ـ نعم .. تخفى .. اسمع يا هذا .. قد تكون أحد العلماء المعدودين فى العالم ، وربما كنت أفضلهم ، فى مضمار الفضائيات ، والاتصال بالذكاء غير الأرضى ، إلا أنك ، من الناحية الاستخباراتية ، لن تقارن بأضعف واحد منا .

ازداد امتقاع وجه (جون) ، وهو يغمغم :

ـ لست أفهم ..

قاطعه الرجل فى صرامة شديدة :

ـ بل تفهم .. وأنا فى انتظار سماع ما لديك ، وإلا ...

انكمش (جون) فى مقعده ، هاتفًا فى ذعر :

ـ وإلا ماذا ؟!

مال الرجل نحوه أكثر ، وقال :

ـ وإلا فلن تذهب إلى ذلك الحى أبدًا .

بدا (جون) شديد الامتقاع والشحوب ، وهو ينكمش أكثر وأكثر فى مقعده ، ويتمتم :

ـ ولكن .. ولكن ..

اعتدل مسئول الأمن القومى ، قائلاً فى حزم :

ـ فليكن .. سنجلس أنت وأنا هنا ، ويذهب الجيش لمحاصرة الحى ، و ...

قاطعه (جون) مذعورًا :

ـ لا .. لا وقت لهذا .

كرَّر الرجل فى حدة :

ـ ومن أدراك ؟!

بدا (جون) يائساً ، وهو يغمغم :

ـ فليكن .. إنه سر يتعلَّق بالأمن القومى الأمريكى ، وهم أمرونى بإخفائه ، و ...

قاطعه الرجل فى حزم :

ـ لقد تلقيتم اتصالاً منهم .. أليس كذلك ؟!

صمت (جون) ، وتجمَّد على مقعده تمامًا ، وبدا وكأنه قد فقد كل دماء الحياة ، وهو يحدِّق أمامه بعينين زائغتين ، فتابع مسئول الأمن القومى :

ـ كنتم تعرفون أنهم سيهبطون هنا .. ولكنهم لم يهبطوا حيث توقعتم .

بدا صوت (جون) أقرب إلى البكاء ، وهو يقول :

ـ لا يمكنهم احتمال ضوء الشمس .. لو اكتمل شروقها لن نعثر عليهم أبدًا .

قال مسئول الأمن القومى فى حذر :

ـ ربما غداً .

هتف (جون) :

ـ لا يوجد غد .

وبدا أقرب إلى الانهيار ، وهو يكمل :

ـ سيرحلون خلال أقل من ساعة .

امتزج حاجبا مسئول الأمن القومى ، وهو يقول فى غضب :

ـ من الواضح أنكم تعرفون الكثير ..

قال (جون) فى ضراعة :

ـ لا يمكننا أن نكرِّر الاتصال ، قبل اثنى عشر عامًا على الأقل ، عندما تصبح كل الظروف الكونية ملائمة .. لو رحلوا دون أن نلتقى بهم ، سنخسر الكثير .. الكثير جدًا .

سأله الرجل :

ـ من تقصد بصيغة الجمع ؟! الأمريكيون أم البشر .

ازدرد (جون) لعابه ، دون أن يجيب ، فتمتم مسئول الأمن القومى فى حنق :

ـ هذا ما توقعته .

وعاد يدير محرك سيارته ، وهو يضيف :

ـ ربما كان ينبغى أن نتولى الأمر بأنفسنا .

وانكمش (جون) فى مقعده أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

فى هذه المرة ، لم يخرج من الشق مخلوق واحد ..

بل خمسة ..

خمسة مخلوقات ، متشابهة فيما بينها ، تسلَّقت طرف الشق ، وخرجت تقف عند حافته ، وتتطلَّع إلى سكان الحى كلهم فى صمت ..

واشترك الكل فى ذلك الصمت ..

صمت مهيب رهيب ، سيطر على المكان كله ، وكل طرف يتطلّع إلى الآخر ..

كان الأمر أشبه بحدائق الحيوانات المفتوحة ..

مخلوقات مختلفة التكوين ، تتأمّل بعضها البعض فى فضول ..

ومن خلف الأبنية ، بدأت الشمس تشرق ..

ومن بعيد ، تعالى صوت المدرعات ودبابات الجيش ، وهى تحاصر الحى كله ..

وعلى الرغم من الاضطراب ، الذى شعر به سكان الحى ، مع صوت الدبابات والمدرعات ، ظلت تلك المخلوقات هادئة ، وكأن ما يحدث أمرًا لا شأن لها به ، من قريب أو بعيد ..

كل ما جذب انتباهها ، هو أن قرص الشمس بدأ يلقى الضوء على المكان ..

الأشعة الذهبية راحت تنعكس على النوافذ والأسطح ، فتطلّعت إليها تلك المخلوقات فى قلق ، وتبادلت فيما بينها نظرة صامتة ، راحت تثب بعدها ، واحداً بعد الآخر ، داخل الشق ..

المخلوق الأول وحده بقى فى النهاية ، ورفع سبّابته ، ولوّح بها فى الهواء ، فغمغم الدكتور (محمود) :

ـ أظنها تحيتهم .

وبعدها وثب ذلك الأخير أيضًا إلى الشق ، واختفى هناك تمامًا ، فتواصل الصمت لحظات ، قبل أن يقول الشيخ (حسن) فى حذر :

ـ هل .. هل انتهى الأمر ؟!

غمغم الدكتور (محمود) فى حيرة :

ـ لست أدرى .

مع آخر حروف عبارته ، ارتجّت الأرض مرة أخرى فى قوة ، ثم وثب عبر الشق جسم ما ..

جسم سقط عند قدمى الدكتور (محمود) ، وانزاح من حوله غلاف لزج هلامى حيوى ، فهتف الرجل :

ـ عمى (عوض) .

كان الحاج (عوض) يسعل بشدة ، وذلك الغلاف الحيوى ينزلق عنه ، ويزحف كثعبان ضخم نحو الشق ، ثم يختفى داخله ، والكل يهرع نحو الحاج (عوض) ، الذى هتف :

ـ ماذا حدث ؟! أين أنا ؟!

احتضنه (محمود) فى لهفة وسعادة ، وهو يقول :

ـ أنت بخير يا عماه .. لقد أعادوك .. وهذا يكفى .. حمداً لله على سلامتك .. حمداً لله .

اندفع سكان الحى يهنئون الحاج (عوض) على العودة ، وربّت أحدهم على كتفه ، قائلاً :

ـ أنت رجل مبروك يا حاج .

وهمس آخر لرفيقه :

ـ الجن أعادوه .

هتف الشيخ (حسن) فى غضب :

ـ قلنا ليس جنًّا .

مع هتافه ، ارتجّت الأرض مرة أخرى بمنتهى العنف ، ثم سمع الكل هدير قوى ، أشبه بمرور قطار تحت أقدامهم ، وفقد بعضهم توازنه ، واستمر الهدير والارتجاج دقيقة كاملة ، ثم انتهى كل شىء بغتة ..

فجأة ، عاد الهدوء إلى الحى ، وتوقفت الأدخنة الحمراء عن التصاعد من قلب الشق ، وغمر ضوء الشمس الحى ، فى نفس اللحظة التى أوقف فيها مسئول الأمن القومى سيارته ، عند الحافة الخارجية للشق ، فوثب منها (جون) ، وقفز يعبر الشق وهو يهتف :

ـ أين هم ؟!

التقط الدكتور (محمود) نفسًا عميقًا ، وقال فى ارتياح :

ـ وصلت متأخراً يا رجل .. لقد رحلوا .

كان (جون) ينفجر مرارة ، وهو يهتف :

ـ رحلوا ؟!

أجابه الدكتور (محمود) ، فى شىء من الزهو ، لم يستطع كبحه :

ـ يمكننى أن أخبرك كل التفاصيل .. لقد التقيت بهم ، وسأنشر تجربتى كلها ، و ...

قاطعه مسئول الأمن القومى فى هدوء ، فى نفس اللحظة التى بدأ فيها رجال الجيش ينتشرون فى الحى :

ـ لست أظن هذا ممكناً يا صديقى .

التفت إليه الدكتور (محمود) فى حدة :

ـ ولماذا ؟!

وضع مسئول الأمن القومى يده على كتفه ، كما لو أنهما صديقان قديمان ، وقال :

ـ مسألة أمن قومى يا صديقى .. صحيح أن الحى كله شهد ما حدث ، ولكن دعنا نبقى الأمور داخله .. الناس سيفسرونه على هواهم .. لا داع لإثارة موجة من الفزع العالمى .

هتف الدكتور (محمود) فى غضب :

ـ ولكنه كشف العمر .

بدا صوت الرجل صارمًا ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! هل ستجازف بسمعتك العلمية كلها ، مقابل قصة أشبه بالخزعبلات يا رجل .

هتف الدكتور (محمود) :

ـ إنها حقيقة ، وأنتم تعلمون هذا .

هزَّ مسئول الأمن القومى كتفيه ، قائلاً :

ـ ومن سيصدقها ؟!

همَّ الدكتور (محمود) بالاعتراض ، ولكن الحاج (عوض) ، أسرع يقول فى انفعال :

ـ لا أحد .

صاح (محمود) مستهجنًا :

ـ عماه !

أشار عمه بسبَّابته فى عصبية ، قائلاً :

ـ لو أنك شاهدت ما شاهدته أنا ، لما أشرت إلى هذا الأمر مرة أخرى قط .

جذبت العبارة انتباه مسئول الأمن القومى ، فترجمها إلى (جون) ، الذى سأله فى لهفة :

ـ وما الذى شاهدته بالضبط ؟!

انعقد حاجبا (محمود) فى غضب ، وتطلَّع عمه إلى (جون) لحظة ، ثم قال فى صرامة :

ـ لا شىء .

ابتسم مسئول الأمن القومى ، وغمغم الشيخ (حسن) :

ـ ليس مهمًا ما رأيت يا حاج (عوض) ، ولا أنت يا دكتور (محمود) .. ليس المهم حتى ما رأيناه وعشناه جميعًا ، وما سيستجوبوننا بشأنه لأسابيع .. المهم أن المحنة قد ولت وانتهت ، فنحن لا نسأل الله (سبحانه وتعالى) رد القضاء ، ولكن نسأله اللطف فيه .

ولم يعلِّق أحد على عبارته ..

فالشمس أصبحت تغمر الحى كله الآن ، معلنة النهاية ..

نهاية ذلك اليوم ..

العصيب ..

للغاية .

* * *

(تمت بحمد الله)

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

صفحة

- عقول المستقبل (دراسة) ٥
- طب ليه (مذكرات) :
  ٢ – شقاوة ٤١
- بذور (قصة كاملة) ٤٩
- ندوة (قصة قصيرة) ١٦٣
- حبيبى (دراسة) :
  ٨ – الذروة ١٦٩

قصة العدد :

- ذلك اليوم ١٨١
- عزيزى القارئ :
  مجلتنا ـ العدد الأول ٣٠٧

الثمن فى مصر 400 مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع